من عجائب سورة يس

بكر محمد ابراهيم

الناشر
مركز الراية للنشر والاعلام

اسم الكتاب : من عجائب سورة يس

بقلـــم : بكر محمد إبراهيم

الطبعة : الأولى ٢٠٠٥

الناشر : مركز الراية للنشر والإعلام

فكرة الكتاب : للناشر أحمد فكرى .

الاشراف والمتابعة : كريم أحمد فكرى .

رقم الإيداع : 4836/2005

الترقيم الدولى : 977.354.071.5

المقدمة

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا وهو القائل عز وجل :

﴿ يسٓ (١) والْقُرآن الْحَكِيم (٢) إنَّكَ لَمن الْمُرْسلينَ (٣) علَىٰ صراط مُّسْتقيم (٤) تنزيلَ الْعزيز الرَّحيم (٥) لتُنذر قوْمًا مَّا أُنذر آباؤُهُمْ فهُمْ غافلُون (٦) لقدْ حقَّ الْقوْلُ علَىٰ أَكْثرهمْ فهُمْ لا يُؤْمنُون (٧) ﴾[يس]

والصلاة والسلام على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين وإله الأولين والآخرين.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الصادق الأمين وإمام الغر المحجلين خير الخلق أجمعين .

وبعـــد ،،

فهذا الكتاب من عجائب سورة يس يتحدث عن فضائل هذه السورة وأدعيتها وبعض أسرارها، ويتحدث عن قصة القرية التى أرسل إليها المرسلون فكذبوهم فأهلكهم الله تعالى وانتصف لرسله وانتقم من القوم الظالمين .

وقد تحريت فى هذا الكتاب الأحاديث الصحيحة والأخبار الصادقة وأعرضت عما تمتلئ به كثير من الكتب من أخبار غير ثابتة وأحاديث موضوعة لأن الكلمة أمانة.

ثم يتعرض الكتاب لذكر رسالات الأنبياء والمرسلين وما أمدهم الله

تعالى به من المعجزات والآيات البينات وما اتصف به هؤلاء المرسلون من صفات الفطنة والذكاء والخلق الكريم والصبر على الشدائد ومواجهة أقوامهم بالحكمة والموعظة الحسنة .

وما كان من نصر الله تعالى لرسله وإهلاكه للأمم المكذبين للرسل والأنبياء .

نفع الله به والحمد لله أولا وآخراً ....

المؤلف

بكر محمد إبراهيم

عضو اتحاد الكتاب

قصة أصحاب القرية
والمرسلين إليها (١)

كشف الله لنبيه ﷺ فى سورة يس عن طبيعة المشركين المتأبية على الإيمان وبين له حالهم ومآلهم ، ثم بين حال المؤمنين الذين يخشون ربهم بالغيب، ثم أمره أن يضرب لواقع الفريقين مثلاً يبين به طبيعة كل منهما ، بصورة تاريخية قصصية مؤثرة ، تملأ القلب الواعى عظة وعبرة ؛ فقال جل شأنه :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣)
إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم
مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ
إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦)
وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا
لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن
ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ
يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا
وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)
أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ
شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ

(١) قصص القرآن - دكتور / محمد بكر إسماعيل . ص ٤٠١ - ٤٠٣

بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ
﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ
قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا
صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم
مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[يس]

وقد أختلف المؤرخون والمفسرون فى القرية التى كذبت المرسلين ، فقيل : إنها إنطاكية ، وضعف ابن كثير هذا الرأى .

وإختلفوا -أيضاً- فى الرسل، فقيل: إنهم كانوا من الحواريين أرسلهم المسيح عليه السلام، لأهل هذه القرية، وضعف ابن كثير هذا القول أيضاً، فقال فى تفسيره لهذه الآيات : "إن أهل إنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح.

ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة : القدس ، إنطاكية ، الأسكندرية، رومية - كما ذكر غير واحد ممن ذكر تواريخهم - .

وأما الرسل، فظاهر القصة يدل على أنهم كانوا رسل الله عز وجل لا من جهة المسيح ؛ فقد قال الله تعالى :

﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ ﴾ .

ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام، ثم لو كانوا رسل المسيح لم يقل لهم أهل القرية :

﴿ مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ .أ.هـ .

ونحن لا يهمنا تعيين هذه القرية ؛ لأنه لو كان فى ذكر اسم القرية فائدة لذكره الله عز وجل : إن القرآن الكريم يطوى عنا ما لا يفيدنا ذكره ولا تنفعنا معرفته .

فالمثل مضروب لأهل مكة على أنهم يشبهون فى تكذيبهم الرسول ﷺ أهل القرية التى أرسل الله إليها رسولين من قبله مباشرة، أو أرسلهما عيسى بن مريم من قبله بإذنه -جل شأنه- فكذبوهما، فأمدهما الله بثالث يعززهما فى دعواتهما إلى الله. فما زادهم ذلك إلا نفوراً وتشاءموا منهم .

وقالوا لهم : ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ .

فما كان من الرسل إلا أن حملوهم مسئولية كفرهم وإعراضهم ، وأطلعوهم على حقيقة أمرهم وسوء مصيرهم ، وجاءهم رجل منهم من أقصى المدينة يسعى إليهم بالهدى ، ودعاهم بالحكمة والموعظة لحسنة إلى الله مع من دعى إليه فقتلوه .

فأدخله الجنة شهيداً ، فتمنى هذا الرجل أن يعلم قومه بمغفرة الله له وإكرامه مثواه ، رحمة بهم وإشفاقاً عليهم ، ثم قتلوا الرسل على ما قيل ، فأهلكهم الله بالصيحة فكانوا حصيداً خامدين .

والقصة - كما هو آت فى الآيات - تشتمل على كثير من اللطائف البلاغية والإشارات العقلية التى يجد فيها المؤمن ما يجعله أشد تمسكاً بدينه وتعلقاً بربه . وشغفاً بتلاوة كتابه وتطلعاً إلى فهم معانيه ومراميه .

ويجد فيها ما يحمله على الاستمرار فى الدعوة إلى الله عز وجل والدفاع عن دينه، والتفانى فى مرضاته غير مبال بما يلقاه فى سبيل ذلك من عنت وتكذيب ، وصدود وإعراض ، وأذى يفقد فيه النفس والنفيس .

والمؤمن الحق يتعلم من هذه الآيات كثيراً من الدروس الإيمانية والخلقية والاجتماعية ، ويتعلم طرق المحاجة والمجادلة بالتى هى أحسن من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل وهداية الخلق إلى الصراط المستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض .

* * *

دعاء يس
لأحمد بن إدريس (١)

وكان الإمام أحمد بن إدريس كثيراً ما يجمع أصحابه عند الشدائد ويأمرهم بقراءها إحدى واربعين مرة .

اللهم صل على مولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم كل نفس ولمحة وطرفة يطرف بها أهل السموات وأهل الأرض وكل شئ هو فى علمك كائن وقد كان أقدم إليك بين ذلك كله :

اللهم أرزقنى قلباً خاشعاً خاضعاً ضارعاً وعيناً باكية وبدناً صحيحاً صابراً ويقيناً صادقاً بالحق صادعً وتوبة نصوحاً ولساناً ذاكراً وحامداً وإيماناً صحيحاً ورزقاً حلالاً طيباً واسعاً وعلماً نافعاً وولداً صالحاً وصاحباً موافقاً وسنا طويلاً فى الخير مشغلاً بالعبادة الخالصة وخلقاً حسناً وعملاً صالحاً متقبلاً وتوبة مقبولة ودرجة رفيعة وأمرأة مؤمنة طائعة، اللهم لا تنسى ذكرك ولا تولنى غيرك ولا تؤمنى مكرك ولا تكشف عنى سترك ولا تقنطنى من رحمتك ولا تبعدنى من كنفك وجوارك وأعذنى من سخطك وغضبك ولا يتأسنى من رحمتك وكن لى ولأهلى ولإخوانى كلهم انيساً من كل روعه وخوف وخشية ووحشة وغربة واعصمنى من كل هلكة ونجنى من كل بلية وآفة وعاهة وغصة ومحنة وزلزلة وشدة وإهانة وذلة وغلبة وقلة وجوع وعطش وفقر وفاقة وضيق وفتنة ووباء وبلاء وغرق وحرق وبرق وسرق وحر وبرد ونهب وغى وضلال وضالة وهامة وزلل وخطايا وهم وغم ومسخ وخسف وقذف وخلة وعلة ومرض وجنون وجذام وبرص وفالج وباسور

(١) السابق ـ بتصرف يسير

وسلس ونقص وهلكة وفضيحة وقبيحة فى الدارين إنك لا تخلف الميعاد .

اللهم ارفعنى ولا تضعنى وارحمنى ولا تعذبنى وفرج همى واكشف غمى واهلك عدوى وانصرنى ولا تخذلنى واكرمنى ولا تهنى واسترنى ولا تفضحنى وآثرنى ولا تؤثر على واحفظنى ولا تضيعنى فإنك على كل شئ قدير يا أقدر القادرين ويا أسرع الحاسبين وصل الله على سيدنا محمد وآله وسلم أجمعين ، ياذا الجلال والاكرام .

اللهم أنت امرتنا بدعائك ووعدتنا باجابتك وقد دعوناك كما أمرتنا فأجبنا كما وعدتنا يا ذا الجلال والاكرام إنك لا تخلف الميعاد .

اللهم ما قدرت لى من خير وشرعت فيه بتوفيقك وتيسيرك فتممه لى بأحسن الوجوه كلها واصوبها واصفاها فإنك على ما تشاء قدير وبالإجابة جدير نعم المولى ونعم النصير، وما قدرت لى من شر وتحذرنى منه فأصرفه عنى يا حى يا قيوم يا من قامت السموات والأرض بأمره ، يا من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، يا من امره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون .

سبحان الله القادر القاهر القوى العزيز الجبار الحى القيوم بلا معين ولا ظهير برحمتك استغيث. اللهم هذا الدعاء ومنك الإجابة وهذا الجهد منى وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ثلاثاً والحمد لله أولا وأخيراً وظاهراً وباطناً وصل الله على سيدنا محمد وآله واصحابة الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً اثيراً دائماً أبداً إلى يوم الدين وحسبنا الله ونعم الوكيل والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله فى كل لمحة ونفس عدد ما وسعة علم الله .

دعاء يس
للحبيب عبد الله الحداد

اللهم أنا نستحفظك ونستودعك أدياننا وأنفسنا وأهلنا وأولادنا وأموالا وكل شئ أعطيتنا اللهم أجعلنا فى كنفك وأمانك وجوارك وعياذك من كل شيطان مريد وجبار عنيد وذى عين وذى بغى ومن شر كل ذى شر إنك على كل شئ قدير اللهم جملنا بالعافية والسلامة وحققنا بالتقوى والاستقامة وأعذنا من موجبات الندامة إنك سميع الدعاء .

اللهم أغفر لنا ولوالدينا ولأولادنا ومشايخنا ولإخواننا فى الدين ولأصحابنا وأحبابنا ولمن أحبنا فيك ولمن أحسن إلينا وللمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات يارب العالمين وصل اللهم على عبدك ورسولك سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وارزقنا كمال المتابعة له ظاهراً وبطناً فى عافية وسلامة برحمتك يا أرحم الراحمين .

دعاء آخر
لبعض الصالحين

يا من لا تراه العيون ولا تخالطه الظنون ولا يحيط بوصفه الواصفون ولا تغيره الحوادث ولا يخشى الدوائر ويعلم مثاقيل الجبال ومكاييل البحار وعدد قطر الأمطار وعدد ورق الأشجار وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار ولا توارى منه سماء ولا أرض أرضاً ولا بحر إلا ويعلم ما فى قعره ولا جبل إلا ويعلم ما فى وعره أجعل خير أعمارنا أواخرها وخيراً أيامنا يوم نلقاك فيه أنك على كل شئ قدير .

اللهم من عادانا فعاده ومن كادنا فكده ، ومن بغى علينا بهلكة فأهلكه ومن أردنا بسوء فخذه واطفئ عنا نار من شب علينا وناره واكفناهم من أدخل علينا همه وأدخلنا فى درعك الحصين واسترنا بسترك الواقى يا من كفانا كل شئ أكفنا ما أهمنا من أمور الدنيا والآخرة وصدقت قولنا وفعلنا بالتحقيق يا شفيق يا رفيق فرج عنا كل ضيق ولا تحملنا ما لا نطيق وأنت الإلة الحق الحقيق يا مشرق البرهان يا قوى الاركان يا من رحمته فى هذا المكان وكل مكان .

يا من هو معنا أينما كنا أحرسنا بعينك التى لا تنام واكنفنا بركنك الذى لا يرام فقد تيقنت قلوبنا لا إله إلا أنت وإننا لا نهلك وأنت رجاؤن فأرحمنا بقدوتك علينا رحمة تشفينا بها من المرض الذى بنا يا عظيماً يرجى لكل عظيم يا عليم يا حليم أنت بحاجتنا وعلى خلاصنا قدير وهو عليك يسير فأمن علينا بقضائها يا أكرم الأكرمين ويا أجود الأجودين ويا أسرع الحاسبين .

طريقة أخرى
لقراءة سورة يس

يقرأ يس هذا اللفظ سبع مرات ثم يستمر فى القراءة إلى قوله تعالى ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩) ﴾ فيقول :

"اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وبارك وسلم ، اللهم يا من نوره فى سره، وسره فى خلقه أخفنا عن عيون الناظرين والطامعين والطاغين وقلوب الحاسدين والباغين كما أخفيت الروح فى الجسد إنك على كل شئ قدير" .

يكرر هذا الدعاء ثلاث مرات ، ثم يقول مرة أخرى :

﴿ فأغشيناهم فهم لا يبصرون (٩) وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون (١٠) إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم (١١) إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين (١٢) واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون (١٣) إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون (١٤) قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون (١٥) قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون (١٦) وما علينا إلا البلاغ المبين (١٧) قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم

وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ
أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا
قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ
(٢١) وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن
دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا
يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ
فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا
غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) ﴾ [يس].

ثم يقول :

"اللهم صلى على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، وبارك وسلم، اللهم أكرمنا بالفهم والحفظ وقضاء الحوائج فى الدنيا والآخرة إنك على كل شئ قدير" .

يكرر ذلك مرتين ، ثم يقول :

﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ
مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً
فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ
كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ
إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) وَآيَةٌ

لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣)
وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤)
لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ
الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا
يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧)
وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) ﴾

فيكررها بعددها السابق أربع عشرة مرة ، ثم يقول :

"اللهم على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد ، وبارك وسلم ، اللهم إنا نسألك من فضلك العميم الواسع السابغ ما تغننا به عن جميع خلقك إنك على كل شئ قدير".

يكررها مرتين، ثم يستمر إلى قوله تعالى :

﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾

فيكررها ست عشرة مرة ثم يقول :

"اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وبارك وسلم ، اللهم سلمنا من آفات الدنيا والآخرة وفتنها إنك على كل شئ قدير" .

يكررها ثلاث مرات ، ثم يستمر فى القراءة قائلاً :

﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي
آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا

صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا
تَعْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا
كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ
وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ
أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ
عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَن نُّعَمِّرْهُ
نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ
إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ
عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا
فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) ﴾

فيقول : "اللهم صل على سيدنا محمد ، وعلى آل سيدنا محمد ، وبارك وسلم .

اللهم ملكنا من خيرى الدنيا والأخرة، وذلل لنا مصاعبها إنك على كل شئ قدير" .

ويكررها ثلاث مرات ، ثم يستمر فى القراءة ، ثم يقول :

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا
مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً
لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ

(٧٥) فَلا يَحْزُنــكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) ﴾

فيقول : "اللهم صل على سيدنا محمد ، وعلى آل سيدنا محمد ، وبارك وسلم، يا الله -ثلاثاً- يا من يحيى العظام وهى رميم ، أحى روحنا ومحبتنا فى قلوب خلقك أجمعين ، إنك على كل شئ قدير" .

ويكرر ذلك ثلاث مرات ، ثم يقرأ :

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ ﴾

بلى قدير على أن يعفو عنا بالعفو والمعافاة ، وأن يدفع عنا كل الفتن والآفات ، وأن يقضى لنا فى الدنيا والآخرة جميع الحاجات، يا الله -ثلاثاً- إنك على كل شئ قدير ، ثم يقرأ :

﴿ أَوَلَيْس الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾

ثم يقول : "اللهم صل على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد ، وبارك وسلم، بسم الله الرحمن الرحيم الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، بسم الله الذى لا إله إلا هو ذو الجلال والإكرام، بسم الله الذى لا يضر مع أسمة شئ فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم .

اللهم صل على سيدنا محمد ، وعلى آل سيدنا محمد وبارك وسلم يا مفرج فرج عنا، يا غياث المستغيثين يا رحمن يا رحمن ارحمنا يا رحمن ارحمنا .

اللهم إنك جعلت يس شفاء لمن قرأها ولمن قرأت عليه ألف شفاء وألف دواء وألف بركة، وألف رحمة، وألف نعمة سميتها، قال عنها حبيبك المصطفى ﷺ "إنها المعممة والدافعة". المعممة ، لأنها تعم صاحبها بالخير الوفير فى الدنيا والاخرة والدافعة ، لأنها تدفع عن صاحبها كل سوء وبلية وحزن وتقضى حاجتهم .

فسبحان المنفس عن كل مديون، سبحان المفرج عن كل محزون، سبحان من جعل خزائنه بين الكاف، سبحان من إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون .

﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾

سبحان ربك رب العزة عما يصفون – وسلام على المرسلين – والحمد لله رب العالمين . يا مفرج فرج عنا، يا مفرج فرج عنا يا مفرج فرج عنا همومنا فرجا عاجلاً برحمتك يا أرحم الراحمين، وصل الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، يا ذا الجلال والإكرام، يا أرحم الراحمين، والحمد لله رب العالمين .

دعاء آخر لسورة يس

يصلى ركعتين ويقرأ فى الأولى الفاتحة سبعاً ، وإنا أنزلناه سبعاً ، وفى الثانية الفاتحة سبعاً ، والإخلاص سبعاً ، ثم بعد الصلاة يبسمل - أى يقول بسم الله - ويصلى على النبى ﷺ ويقرأ الدعاء وهو :

"اللهم ارزقنى رزقاً حلالاً بلا كد، واستجب دعائى بلا رد اللهم إنى أعوذ بك من الفضيحتين الفقر والدين، وقهر الأعداء، يفعل الله ما يشاء بقدرته، ويحكم ما يريد بعزته .

سبحان المنفس عن كل مكروب ومديون، سبحان المخلص لكل مسجون، سبحان المفرج عن كل محزون، سبحان العالم بكل مكنون، سبحان مجرى الماء فى البحر والعيون، سبحان من جعل خزائنه بين الكاف والنون ، سبحان من قال :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

يا مفرج فرج -سبعاً- سبحان الذى بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون، يا الله -ثلاثاً- يا حميد يا من عندك مرادى عليك حفظى، يا ناصر يا معين إيام نعبد وإياك نستعين .

اللهم أعنا على كل حال بفضلك يا حليم بحرمة سورة يس، ببركة اسمك يا الله يا أرحم الراحمين.

اللهم يا منزل الكتاب، ويا مجرى السحاب، ويا هازم الأحزاب، أنصرنا على جميع الأعداء

﴿ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾

﴿ ورد الله لذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴾ .

الدعاء للميت

أمرنا رسول الله ﷺ بفضائل عظيمة تعتبر من روائع جوهر الإسلام وأخلاقيات ديننا الحنيف ومنها، إتباع الجنازة، فاتباع الجنازة كما قال رسول الله ﷺ حق المسلم على المسلم بنص الحديث النبوى الذى رواه أبو هريرة -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال : «حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس» (متفق عليه) .

أما عن الدعاء للميت؛ فقد ورد فى صحيح السنة استحباب الإكثار من الدعاء للميت وذلك لأن الملائكة تؤمن على الدعاء ، ورجاء فى طلب رحمة الله للميت ، والدعاء بإخلاص يكون مقبولاً إن شاء الله .

وكما قال العلماء لدعاء للميت بأى صيغة ما دامت خير، ويستحب الدعاء بما ورد عن رسول الله ﷺ.

صيغ الدعاء

لأهمية الدعاء للميت ونفع الميت به حثنا رسول الله ﷺ عليه حيث قال : "ما من ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له - أى يدعون بإخلاص - إلا شفعوا فيه - أى قبل الله تعالى شفاعتهم فيه ودعاؤهم بفضله سبحانه وتعالى -" (رواه مسلم).

ولذلك يستحب أن يدعو المسلم للميت بأدعية كثيرة منها :

"اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه، وأكرم نزله ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله داراً خيراً من داره، وأهلاً خيراً من أهله وزوجاً خيراً من زوجه وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار " .

والمهم أن الدعاء للميت يكون كما قال ﷺ بإخلاص : "إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء " رواه أبو داود.

"اللهم أغفر له وارفع درجته فى المهديين، واخلفه فى عقبه فى الغابرين، وأغفر لنا وله يارب العالمين ، وأفسح له فى قبره ونور له فيه" .

"اللهم إن فلان ابن فلان فى ذمتك وحبل جوارك، فقه فتنة القبر، وعذاب النار، وأنت أهل الوفاء والحمد لله، اللهم فاغفر له وارحمه، إنك أنت الغفور الرحيم" .

"اللهم اغفر لحينا وميتنا، وصغيرنا وكبيرنا ، وذكرنا وأنثانا ، وشاهدنا وغائبنا، اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان، اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده" .

"اللهم أغفر لميتنا وارحمه وعافه واعفو عنه ، اللهم إن كان محسناً فزد فى حسناته، وإن كان مسيئاً فتجاوز عن سيئاته ونور له قبره وهون عليه السؤال، وأجعل قبره روضة من رياض الجنة .. آمين . آمين. آمين يا رب العالمين .

"نسألك الله العظيم أن يرحم أمواتنا وأموات المسلمين ، وأن يغفر لهم ويتجاوز عن سيئاتهم ويغسلهم من ذنوبهم بالماء والثلج والبرد، وأن ينعم

عليهم بالأنس فى قبورهم بالقرآن وإزالة وحشتهم بصالح الأعمال وأن يجعل قبورهم روضاً ورياحين وأن يغفر لنا ولهم بفضله وكرمه ومنه وجوده إنه هو الغفور الرحيم .

ويستحب الجلوس عند قبر الميت بعد دفنه والدعاء له كما قال رسول الله ﷺ :"استغفروا لأخيكم وسلوا له التبيت فإنه الآن يسأل" رواه أبو داود.

دعاء لتفريج القلوب

روى ابن عباس -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: "لا إله إلا لله العظيم الحليم ، لا إله إل الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم " متفق عليه .

وعن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول : "اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والهرم، والبخل، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات" رواه مسلم .

"سبحانك اللهم لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك وبحمدك صل وسلم وبارك وأنعم وأسعد وأكرم على سيدنا محمد وآله وكل عبادك الصالحين وكل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله وهب لهم ولوالديهم ولخصومهم وأرض خصومهم عنهم وشفعهم فى خلقك واغنهم برحمتك عمن سواك فى الدارين وفك رهان المرهونين واقض ديون المدينين وثبتهم بالحجة فى القبور وأنعم على الموتى بالسعة والسعادة والنور والسرور واخسأ كل الشياطين إلى يوم النشور يا عزيز يا عفو يا غفور يا نور النور برحمتك يا أرحم الراحمين يارب اللهم آمين .

فضائل
سورة يس (١)

الاحاديث الصحيحة الواردة قال رسول الله ﷺ : أن الله تعالى قرأ طه ويس قبل أن يخلق السموات والأرض بألف عام. فلما سمعت الملائكة القرآن قالت طوبى لأمة ينزل هذا عليها طوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تتكلم بهذا كذا فى المصابيح .

ومن حديث معقل بن يسار -رضى الله عنه- عن رسول الله ﷺ إنه قال : سورة يس قلب القرآن لا يقرؤها أحد يريد الدار الاخرة إلا غفر له اقرأوها على موتاكم .

واخرج الترمذى من حديث أنس -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال : إن لكل شئ قلباً وقلب القرآن يس، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات .

وأخرج الطبرانى من حديث أنس -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ : أنه قال : من قرأ يس فى ليلة إبتغاء وجه الله غفر له من ذنبه فاقرؤها عند موتاكم .

وكذا عن معقل بن يسار- رضى الله عنه- .

وأخرج الطبرانى من حديث أنس -رضى الله عنه- عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال : من داوم على يس كل ليلة ثم مات مات شهيداً كذا فى الاتفاق .

---

(١) القول المبين فى خواص ودعوات وفوائد سورة يس - رمضان محمد عبد اللطيف دار الحسين الإسلامية بتصرف

وأخرج البخارى فى الأدب عن ابن عمر -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ أنه قال : "من قرأ يس فى ليلة أصبح مغفوراً له " كذا فى الجامع الصغير.

روى بإسناد صحيح عن أبى بكر الصديق وابن عباس -رضى الله عنه- من قرأ يس إلى قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) ﴾ ودعا على أثرها استجيب له وقد جرب ذلك وقال عليه الصلاة والسلام : من قرأ سورة يس فى ليل أو نهار لم يدركه يؤمئذ ذنب كذا فى شمس المعارف .

ونقل ابن حبيب حديثاً عن النبى ﷺ قال : إن فى القرآن لسورة تدعى العزيزة عند الله يدعى صاحبها الشريف عند الله يشفع قارئها يوم القيامة فى أكثر من ربيعه ومضر وهى يس .

وقال عليه الصلاة والسلام تهرب مردة الشياطين من سورة يس وآخر الحشر والمعوذتين وقال عليه الصلاة والسلام إن فى القرآن سورة يشفع قرأها ويغفر لمستمعها ألا وهى يس .

وعن الحسن رضى الله عنه عن النبى ﷺ من قرأ سورة يس وحم الدخان فى ليلة جميعاً إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه .

وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأهما فى ليل أو نهار لم يدركه يؤمئذ ذنب .

وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : الحمد لله الذى أكرمنى وأكرم أمتى بسورة يس وآية الكرسى وقل هو الله أحد .

وأخرج ابن الصر يس عن سعيد بن جبير أنه قرأ على رجل مجنون يس فبرأ .

وأخرج المحاملى فى أماليه عن عبد الله بن الزبير -رضى الله عنه- قال : قال : عليه الصلاة والسلام من جعل يس أمام حاجته قضيت له وله شاهد مرسل عند الدارسى كذا فى الاتقان، ويبدأ بقراءة يس سبع مرات أو أحدى وعشرين مرة أو إحدى وأربعين مرة فلا شك ولا شبهة فى تأثيرها فإن الله تعالى يقضى حاجته بلطفه وكرمه وقال بعضهم لفظة يس سبع مرات وإذا بلغ فى القراءة إلى قوله :

﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) ﴾

يكررها أربع عشرة مرة وإذا بلغ قوله :

﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾

يكررها ست عشرة مرة وإذا بلغ قوله :

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ .... (٨١) ﴾

يكررها أربع ثم يقرأ إلى أخرها فبلغ المجموع إحدى وأربعين ومن قرأ السورة على هذا الترتيب سبع مرات يحصل مراده ومقصوده هكذا أخذت الأجازة عن المشايخ .

وأخرج الثعلبى فى تفسيره عن النبى ﷺ أنه قال : من كتب يس وشربها أدخلت جوفه ألف دواء وألف يقين وألف رأفة وألف رحمة ونزع منه كل داء وغل .

وفى المستدرك عن أبى جعفر بن على قال : من وجد فى قلبه قسوة فليكتب يس فى جام زجاج بمسك وزعفران ثم يشربه كذا فى الإتفاق .

ومن كتب يس بماء ورد وزعفران سبع مرات وشربها سبعة أيام متواليات كل يوم واحدة وعى ما سمع وغلب من يناظره وعظم فى الأعين كذا فى الدار النظيم، ومن كتبها للحفظ بمسك وزعفران وتمحى وتسقى حفظ ما سمع ومن سقاها للرضيع كان غذاء حسن وشفاء تام بإذن الله تعالى ومن كتبها لدفع الأمراض والعلل والأوجاع وكتب معها سورة الفاتحة والمعوذتين آية الكرسى فى جام زجاج بمسك وزعفران وماء ورد ويمحى بماء المطر إن أمكن وشربها صاحب العلل والداء.

ثم يقول عند شربها نويت الشفاء بآيات الله العظام وأسمائه الكرام فإن الله تعالى يشفيه ويعافيه من كل علة وينفع من خفقان القلب والرجفان من خرع يفعل كما ذكرنا ومن خواص يس لنمو الرزق والبركات وفتح الخيرات تكتب وتوضع فى كل شئ فتظهر البركة فيه .

وسورة يس عظيمة المقدار شهيرة الفضل والأجر وفى حديث المختار فهى قلب القرآن والمجلية للأخزان الماحية للأشجان وهى العدة لكشف النوازل والمهمات والسلامة من الفتن والبليات وقد أصى بها العارفون وواظب عليها الأولياء الصالحون.

وكل صادق يجد النجاح فى مقاصده وقضاء الحوائج بها فإفزع إليها عند كل هم ونازلة يحصل الفرج ويزول الضيق والحرج وينشرح الصدر ويتيسر لك الأمن.

وأكثر من قرءتها وأحسن الحضور فى تلاوتها وتأمل ما جمعت من أسماء الله الظاهرة والمضمرة فى قوله : (إنا جعلنا) ونحوهما فقد جمعت من ذلك ما لم يجمعه غيرها وإن قرئت ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً إلى الأربعين كان حسناً

فقد ذكرت هذه الأعداد واستحسنوا الدعاء بعدها وتكرير بعض الآيات مثل أن يقول ند قوله :

﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) ﴾

اللهم أكرمنى بقضاء حوائجى كلها يا أرحم الراحمين ويكرر قوله

﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾

أثنى عشرة مرة وقوله تعالى :

﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾

ست عشرة مرة وعند قوله تعالى :

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بلى .... (٨١) ﴾

يقول بلى قادر على أن يفعل لى كذا ويذكر حاجته.

ويقول بعد ختمها : سبحان المفرج عن كل محزون سبحان المنفس عن كل مديون سبحان من أمره بين الكاف والنون. اللهم فرج عنى همى وغمى عاجلاً وأجلاً فى يسر وعافية وسلامة آمين وكان سيدنا الشيخ عمر بن زين بن سميط يسمع منه عند ختمها يقول : يا مفرج الهموم يا حى يا قيوم وبالجملة فقراءة يس سلوة المكروبين وكنز المقلين وعمدة الراجين وسلم الطالبين .

وقد صنف فى فضائلها جمع من العلماء وأعمها (الدار الثمين فى فضائل يس) للسيد عبد الله بن على صاحب الوهط .

منهج الرسل
فى الدعوة إلى الله (١)

فلم يكن الله سبحانه ليدع عباده سدى ويتركهم هملاً دون أن يأمرهم وينهاهم ويجزيهم على ما كسبت أيديهم .

قال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) ﴾[المؤمنون]

وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠) ﴾ [القيامة].

فأرسل سبحانه الرسل وشرع الشرائع رعاية لمصالح عباده فى معاشهم ومعادهم فضلاً منه ورحمة.

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء]

وأبان الدليل وأوضح السبيل وبشر وأنذر إقامة للحجة عليهم وإعذاراً إلى من حقت عليه كلمة العذاب منهم، فأتبع هواه بغير هدى من الله حكمة منه وعدلاً .

قال تعالى : ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى

(الحكمة من إرسال الرسل - الشيخ / عبد الرازق عفيفى.

اللَّه حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) ﴾[النساء]

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤) ﴾ [طه]

وفى الصحيح : "أن سعد بن عبادة قال : لو رأيت رجلاً مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال تعجبون من غيره سعد والله لأنا أغير من سعد ، والله أغير منى.

ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين، ولا أحد أحب إليه المدح من الله ومن أجل ذلك وعد الله الجنة " .

ومن تمام رحمة الله بعباده ونعمته عليهم وكمال حكمته فى إقامة الحجة والإعذار إلى من سبق عليه القول منهم أن جعل شريعة كل رسول من رسله شاملة كل ما تحتاجه أمته جامعة لما يصلح شأنها ، وينهض بها فى إقامة دولتها وبناء مجدها، وتقويم أودها وحفظ كيانها ، ويجعلها مثلاً أعلى فى جميع شؤنها، سعيدة فى الدنيا والآخرة .

قال ﷺ "ما بعث نبى إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم" ، بل تضمنت فوق ذلك ما يكمل الضروريات والحاجيات والتحسينات على خير حال وأقوم طريق .

قال تعالى: ﴿ ما كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ

اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب]

وقال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ... ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة]

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال "إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع هذه اللبنة، قال فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبين"، وقال أبو ذر رضى الله عنه " لقد توفى رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه فى السماء إلا ذكر لنا منه علماً".

وقال عمر رضى الله عنه "قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً ، فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل لجنة منازلهم وأهل النار منازلهم ، حفظ ذلك من حفظه ، ونسيه من نسيه"، وقال مالك بن أنس "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، ثم ذكر قوله تعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ... ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة]

ثم قال فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً " .

ولا عجب فى أن يشرع الله شريعة عامة دائمة لعالم يطول عهده ويتجدد خلقه وتتطور أحوله ، ويكون التدرج فى شرعها أيام رسولها ، ثم تستقر بعد وفاته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فإن الله سبحانه أحاط بكل شئ علماً ، ووسع كل شئ رحمة وإحساناً وحكمة وعدلاً ، وخلق كل شئ فقدره تقديراً، فهو عليم بكل شئونه الظاهرة والباطنة، وبما يصلح حاله فى عاجله وآجله .

قال تعالى: ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) ﴾ [مريم]

إنما يستنكر ذلك من البشر ونحوهم من المخلوقات ؛ لأن أفكارهم محدودة ومداركهم قاصرة، مع استيلاء الهوى عليهم وتمكن العصبية منهم، إلى غير ذلك مما يوجب كثرة اللغط فى آرائهم والاضطراب والتنقض فى مذاهبهم، فى أصول التشريع وفروعه عن قصد وغير قصد، وخاصة تفاصيل التوحيد والمعاد والعبادات والمعاملات.

قال تعالى: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ [النساء]

الأمم الماضية لما كانت تسرل إليهم الأنبياء، كلما هلك نبى خلفه نبى وكان الوحى مستمراً، جرت فيهم سنة التطور فى التشريع والتدرج فى الأحكام، وكان الكثير من التفاصيل وفروع الشريعة مؤقتة فنسخت الشريعة اللاحقة من أحكام الشريعة السابقة ما اقتضت المصلحة نسخه تنشئة للأمة وتربية لها وسداً لحاجتها، أو عقوبة لها على ظلمها وتمردها على شرائع ربها .

قال تعالى - فى رسالة عيسى عليه الصلاة والسلام -

قال تعالى : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) ﴾ [آل عمران]

وقال تعالى - فى محمد عليه الصلاة والسلام -

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

وقال تعالى :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) ﴾ [النساء]

أما هذه لأمة المحمدية فشريعتها خاتمة الشرائع، ورسولها خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا نبى بعده، فاقتضت حكمة الله أن تكون شريعته فيهم عامة دائمة إلى يوم القيامة كفيلة بجميع مصالحهم الدينية والدنيوية، منظمة لنواحى حياتهم المختلفة، مغنية لهم عما سواها فى جميع

أمورهم وشئونهم، ولو طال بهم الأمد واختلفت أحوالهم على مر الأيام والعصور حضارة وثقافة، وتباينت أفكارهم ذكاء وغباوة، وحالتهم قوة وضعفاً وغنى وفقراً .

وجاءت تكاليف هذه الشريعة جملتها وتفصيلها قواعدها وجزئياتها بتحقيق مقاصد التشريع الضرورية التى لابد منها فى قيام مصالح العباد الدينية والدنيوية، ولا تستقيم أحوالهم إلا بها، وذلك يرجع إلى ما يحفظ عليهم دينهم وأنفسهم وأنسابهم وعقولهم وأموالهم، وبتحقيق مقاصده الحاجية التى تيسر عليهم طريق العمل للوصل للغية المنشودة ، وتجعلهم فى سعة وسهولة وتدفع عنهم المشقة والحرج ، وبتحقيق ما يجمل حالهم ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً .

وصحيفة الوجود وواقع الحياة فى تاريخ الأمم أصدق شهيد بذلك ؛ فمن أبتغى الهدى فى غير شريعة الله من النظم والقوانين الوضعية أضله الله ومن حكم غيرها فى عقيدته أو عبادته أو معاملاته فهو مبتدع، فيه جاهلية سئ الظن بربه معجب بفكر نفسه أو أفكار من أتخذهم من زعمائه أرباباً فى التشريع يشرعون له ما يضاهى به شريعة الله ، بل يؤثر قوانينهم مع قصورهم وتقصيرهم على شريعة أحكم الحاكمين، وكفى بذلك زيغاً وضلالاً وكفراً وطغياناً .

قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾[الأنعام]

وقال : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنــــزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) ﴾[الأعراف]

وقال : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيــــنًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) ﴾ [آل عمران]

وقال : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (١١٦) ﴾[الأنعام]

وقال: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ الــــلَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الــــرَّاشِدُونَ (٧) ﴾ [الحجرات]

إلى غير ذلك من النصوص التى حثت على العمل بكتاب الله وهدى رسوله عليه الصلاة والسلام، وحذرت من الحيدة عن ذلك والإعراض عنه تباعاً للآراء، ونحاتة الأفكار دون بينة من الله أو حجة عن المعصوم صلى الله عليه وسلم .

وإليك كلمات فى أركان الشريعة والسياسة فى البلاغ، وأمثلة من نصوص الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين، يتبين لك منها سعة الشريعة وغناها والقواعد العامة، والجزئيات الخاصة التى تشرح حق الله على عبده، وحق العبد على ربه، وحق الراعى والرعية، وتحدد موقف الدولة

من الدولة فى السلم والحرب ، والعلاقة بين أفراد الشعب وجماعاته ، بل بينت حقوق الحيوانات والعجماوات على راعيها وحدت من تسخيره لها وتسلطه عليها على وجه من العدالة يكفل لها البقاء ، وحل جميع ما يجد من المشاكل العامة والخاصة على أقوم طريق وأهدى سبيل .

للشريعة أصول إليها ترجع، ودعائم عليها تقوم، فشريعة الصلاة والصيام والزكاة ونحوها من العبادات لا يستقيم أداؤها ولا التنسك بها إلا إذا عرف العابد أن من يتقرب إليه غنى كريم، قوى متين، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

إلى غير ذلك من صفات الجلال والإنعام وقوة البأس وشدة الانتقام، فإنه إذا عرفه العباد بذلك أشربت قلوبهم حبه، واستشعرت كمال الذل له والخوف منه، فأسلموا وجوههم إليه، وعبدوه عبادة من يعلم أنه يسمعه ويراه ويراقبه فى كل شؤنه وأحواله رجاء رحمته وخشية عذابه .

وشريعة المعاملات لا تعدو -ذلك النهج- نهج العبادات؛ فإن استقامة الناس فى أخلاقهم، وعدلهم فى رضاهم وغضبهم، وإنصافهم لأوليائهم وأعدائهم، ونصحهم فى بيعهم وشرائهم، وجميع معاملاتهم يتوقف على شعور القلب بهيمنة قوة غيبية فوق قوى العالم ، قوة رب قادر يخفض ويرفع ويعطى ويمنع على سنن قويم من الحكمة والعدالة، لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع، ولا راد لما قضى، بذلك الشعور يستقيم حال الإنسان، وينتظم أمره فى سره وعلنه، فيرعى الحقوق لعذابه ونقمته، وبذلك الشعور وحده يجتمع شمل العالم ويعم الأمن والسلام جميع مرافق الحياة .

أضف إلى ذلك أن ثبوت الشريعة فى ذاتها عند المكلفين، والإيمان بها

يتوقف على معرفة مصدرها والثقة بطريق بلاغها ، فيجب إذن على العباد أن يعلموا أولاً أن لهم رباً خلاقاً عليماً حكيماً ، بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون، إلى غير ذلك مما تفرد به من صفات الربوبية، ويؤدوها على وجهها استمداداً لفضل الله ورحمته، ودفاعاً للتى استوجبت إخلاص العبادة منه ليسلموا وجوههم إليه كوناً وشرعاً، ويعبدوه مخلصين له الدين رغبة ورهبة .

وأن يعلموا ثانياً أنه تعالى يرسل رسله ليبلغوا عنه شريعته رحمة منه وفضلاً، ويؤيدهم بالمعجزت، ويعصمهم فى البلاغ حكمة منه وعدلاً ليميز الكاذب من الصادق والمبطل من المحق، فيثق العباد بشريعة ربهم، ويأمنوا عليها من الدخل والافتراء، وتقوم عليهم بها الحجة.

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) ﴾[الحاقة]

لهذا بدأت الرسل دعوتها بالتوحيد، وإثبات الرسالة والجزاء يوم المعاد، فجرت على موجب العقل ومقتضى الفطرة .

وكان لزاماً على الدعاة أن يبدؤا بدأ به الرسل ، ويتبعوا ذلك القول فى الفروع وتفاصيلها وسائر ما يكمل الأصول ويحمى حماها حسب الأهمية ، وما يشعر به الدعاة من حاجة المدعوين شعوباً وأفراداً .

سلكت الرسل فى إثبات وجود الله وتوحيده وصدقهم فى دعوى الرسالة وخبرهم عن اليوم لآخر مسلك الإقناع بالحجة والبرهان، وضرب الأمثال ، وجمعت فى ذلك بين مناجاة العقل والتأثير على العاطفة والتذكير

بما جبلت عليه النفوس، وفطر عليه الخلق من الإقرار بالحق، والميل إلى لعدل والإنصاف، مع لين الجانب، والرفق فى الخطاب، والصفح الجميل فى غير ذلة نفس ولا مواربة أو مداهنة فى الحق، فلا عنت فى القول ولا تعسف، ولا فرض لحكم على الأمة دون بينة من الله وسلطان .

ففى إثبات وجود الله : اكتفوا فى الاستدلال عليه بالإشارة مع دقة المأخذ وسهولة العبارة، لقلة من أنكر وجودة تعالى ممن مسخت فطرهم ووضح للعقلاء جهلهم ومجافاتهم الحق وتنكبهم طريق الصواب.

قال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦) ﴾ [الطور]

فأنكر تعالى أن يكونوا خلقوا بلا خالق ؛ ضرورة أن الأثر يحتاج فى حدوثه إلى مؤثر، كما شهد بذلك العقل والفطرة والحس، وأنكر أن يكونوا خالقين لأنفسهم لما يلزمه من التناقض، وأنكر أن يكونوا خالقين للسموات والأرض ؛ لشهادة تاريخ وجود الأمم والكونيات الأخرى بأن خلق السموات والأرض قد كان قبل خلق ما بينهما من الإنس والجن ونحوهم ، فكيف يخلق المتأخر فى الوجود شيئاً قد سبقه وتقدم عليه .

وقد أخذ جماعة من العلماء هذا الدليل الخبرى العقلى ، وأدخلو عليه شيئاً من التكلف والصناعة الكلامية فقالوا : إن نسبة الممكن إلى طرفيه الوجود والعدم على السواء، فلو وجد بون سبب خارج عن ذاته وحقيقته لزم ترجيح أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح ، ولو أوجد نفسه لزم مع ذلك أن يكون متقدماً على نفسه ... باعتباره خالقاً لها، متأخراً عنها باعتباره مخلوقاً لها، وتقدم الشئ على نفسه وتأخره عنها باطل بالضرورة، لما فيه

من التناقض الواضح ، فثبت أن العالم لابد له من موجد غير ذاته وحقيقته، ولابد أيضاً أن يكون واجب الوجود لذاته ، مختلفاً عن العالم فى خواصه وصفاته.

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ [الشورى]

ذلك ليصح أن يستند إليه العالم فى وجوده بدءًا ودواماً : إذا لو كان مستحيلاً لما صح أن يكون منه خلق أو تقدير، لأن المستحيل عدم محض وفاقد الشئ يعطيه .

ولو كان ممكناً لافتقر إلى من يرجح وجوده على عدمه كم سبق بيانه، فإن استمرت الحاجة فاستند كل فى حدوثه إلى نظير من الممكنات ، لزم إما الدور القبلى وإما التسلسل فى المؤثرات ، وكلاهم باطل باتفاق العقلاء .

وإذا انتفى عنه الإمكان والإستحالة ثبت له وجوب لذاته ، ضرورة أن أقسام الحكم العقلى ثلاثة : الوجوب ، والإمكان ، والإستحالة . وقد انتفى اثنان فتعين الثالث : وهو وجوب الوجو.

قال تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) ﴾ [الحديد]

وفى الحديث "اللهم أنت الأول فليس قبلك شئ، وأنت الآخر فليس بعدك شئ" .

ومن نظر فيما ترشد الآيات نظراً ثاقباً، وفكر فيما توحى به سن لله فى المخلوقات -من عجائب خلقها، وحسن تنسيقها ، وشد أسرها- تفكيراً عميقاً، وبحث فى أحكامها وبديع صنعها بحثاً بريئاً من الهوى ولحمية

الجاهلية وأنصف مناظره من نفسه - فلم يمنعه من فهم ما عرض عليه من الحق والإذعان له كبر برديه، ولا عناد يطغيه - اتضح له الهدى ، واضطراه ذلك أن يؤمن من أعماق قلبه بأن للعالم رباً خلاقاً فاعلاً مختاراً حكيماً فى تدبيره وتقديره أحاط بكل شئ علماً ، وهو على كل شئ قدير .

ومع قيام الدليل ووضوح السبيل تعامى بعض الناس عن الحق ومن أولئك : فرعون موسى، فإنه أنكر بلسانه ما استيقنت به نفسه وشهدت به الفطرة وقام عليه الدليل من وجوب واجب الوجود سبحانه، فأقام موسى عليه الحجة بدلالة الأثر على المؤثر، واصنعة على الصانع - فوجود الخلق وعظم شأنه دليل على وجود الخالق وعظيم قدرته وقدره وسعة علمه وكمال حكمته - فالقمه الحجر .

وذلك بين فيما حكاه الله عنهما من الحوار والجواب ، قال تعالى :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) ﴾[الشعراء]

فأنظر كيف وقف موسى موقف من يصدع بالحق ويقيم عليه الحجة والبرهان ، وكيف وقف فرعون من موسى موقف السفهاء لا يملك إلا الشتم والسباب والسخرية والاستهزاء والتهديد بأليم العذاب .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) ﴾ [الإسراء]

وقال تعالى : ﴿ . . .فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴾ [النمل]

فبين تعالى أنه آتى موسى الآيات البينات التى تنير البصائر، وتجلو الشكوك، وأن موسى ثبت فى ميدان الدعوة ثبات مؤمن بما جاء به موقن بنصر ربه، فلم يرهبه جبروت فرعون ، ولم يأخذ من نفسه مأخذاً مع وحدته وضعف قومه .

أما فرعون فقد بهرته الآيات ، وأخذت عليه صولة الحق الطريق ، فلم يجد لديه سلاحاً يحفظ به ملكه فى زعمه ، ويدافع به عن باطله إلا الخداع والتمويه على قومه، وإنذار موسى ومن آمن به أن يذيقهم أليم عذابه ، وأنى له ذلك ! والله من ورائهم محيط، وقد كتب على نفسه أن يجعل العاقبة للمتقين.

قال تعالى : ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾[الإسراء]

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) ﴾ [طه]

... إلا أنه أجمل وأوجز في الاستدلال بهذه الآيات وفصل في تلك .

وقد ورث ذلك الزيغ والإلحاد أناس ظهروا في عصور متعاقبة بأسماء مختلفة ، وأشتهروا بألقاب متنوعة، فتارة يسمون بالدهريين، وأخرى برجال الحقيقة ووحدة الوجود، وأحياناً بالشيوعيين، وآونة بالبهائيين، إلى غير ذلك من العبارات التي اختلفت حروفها ومبانيها وائتلفت مقاصدها ومعانيها، فكلها ترمى إلى غرض واحد، وتدور حول محور واحد ، هو أنه ليس للعالم رب يخلق ويدبر ولا إله يقصد ويعبد، وقد تبين بما تقدم وأمثاله فساد مذهبهم وخروجه عن مقتضى العقل والفطرة وما أيد ذلك وصدقه بعد أدلة السمع .

فإن زعم بعد ذلك زاعم أن وجود العالم وليد الصدفة والاتفاق ، أو أنه نشأت أطواره عن تفاعل عناصر المادة فتفرقت إلى وحدات بعد إجتماع أو اجتمعت بعد تفرق واختلاف، وصار لتلك الوحدات أو المركبات من الخواص ما لم يكن لها قبل ذلك من التفاعل، وبذلك تجددت الظواهر، وحدث ما نشاهد من تغير وآثار مع جريانها على سنه لا تتبدل وناموس لا يختلف ولا يتغير .

قيل له : من الذي أودع تلك المادة طبيعتها وأكسبها خواصها ، فإنها إن كانت لها من ذاتها ومقتضى حقيقتها لم تقبل التغير والزوال، لأن ما بالذات لا يتغير ولا يزول، وقد رأيناها تتغير وتزول ، فلابد لها إذن من واهب يهبها . وفاعل مختار عليم حكيم يوجدها، ويدبرها ويضعها مواضعها، وليس

ذلك المادة أو خواصها وطبيعتها ؛ فإنها مع حدوثها وحاجتها ليس لها من سعة العلم وكمال الحكمة وشمول المشيئة وعظم القدرة ما ينتظم معه الكون مع ما نشاهده من إحكام تبهر العقول دقته وجماله ، ومن إبداع يأخذ بمجامع القلوب ما فيه من شدة الأسر وقوة الرباط بين وحداته وكمال التناسب بين أجزائه وقيام الآخر مقام الخادم من سيده والراعى من رعيته.

ألا إن الطبيعة صماء لا تسمع ، بكماء لا تنطق ، عمياء لا تبصر ، جاهلة لا تعلم، مسخرة لمن أودعها المادة، خاضعة لتصريفه وتقديره ، سائرة على ما رسم لها من سنن لا تعدوها ونواميس لا تخرج عنها ، فأنى يكون لها خلق وإبداع ! أو إليها تنظيم وتدبير ! أو منها وحى وتشريع !

إنما ذلك إلى الله الذى شهد العقل والفطرة بوجوب وجوده وكمال علمه وحكمته وغناه وقدرته ، إلى غير ذلك من صفات جلاله ، تعالى الله عما يقول الملحدون علواً كبيراً .

وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥) ﴾[الملك]

ولا يعيب الحق بعد ذلك أن يقل من سلك طريقه ، وأن يزيغ عنه من انتكست بصيرته ، وفسدت فطرته ، فأتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم . وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة . ولا يضير الدعاة إليه أن عدل عن الصراط المستقيم من انحرف مزاجه أو غلبته شهوته فخشى أن تحد الشريعة من نزعاته الخبيثة ، وتحول دون نزواته الدنيئة ، أو أطغاه كبره وسلطانه، وخاف أن تذهب الشريعة بزعامته الكاذبة، وسلطانه الجائر. فوقف فى سبيلها، وصد عن سبيلها، وصد عنها، ولج فى خصامها بغيا وعدواناً ، فإن الله ناصر دينه ومؤيد رسله وأوليائه.

﴿ ... وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾[الحج]

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) ﴾[محمد]

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾ [الشعراء]

يحكى عن أبى حنيفة رحمه الله أن جماعة من أهل الكلام أرادوا البحث معه فى تقرير الربوبية، فقال لهم أخبرونى قبل أن نتكلم فى هذه المسألة عن سفينة فى دجلة، تذهب فتمتلئ من الطعام والمتاع وغيرهما بنفسها، وتعود بنفسها فترسى بنفسها، وتفرغ وترجع، كل ذلك من غير أن يديرها أحد، فقالوا : هذا محال لا يكون أبداً، فقال لهم : إذا كان هذا محالاً فى سفينة ، فكيف فى هذا العالم كله علوه وسفله .

وقد قال مثل هذه المقالة جماعة معه من العلماء ، وقولهم ليس حجة لصدوره عنهم ، بل لصحته فى ذاته ، وشهادة الواقع له .

شهدت الفطرة بأن الله وحده خالق كل شئ ومليكه، وإليه يرجع الأمر كله من التصريف والتدبير، فهو الذى يحيى ويميت، وهو الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وهو الذى يرسل الرسل، ويشرع الشرائع ليحق الحق بكلماته ويقيم العدل بين عباده شرعاً وقدراً، إلى غير ذلك مما لا يحصيه العد، ولا تحيط به العبارة .

وقام على ذلك أيضاً دليل السمع ، وأقر به كل مكلف حتى المشركون قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) ﴾[الزخرف]

وقال تعالى : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا

دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾ [النمل]

فأنكر سبحانه أن يكون معه إله فعل شيئاً من ذلك، وقررهم بتفرده بكل شئ من الخلق والتدبير والتصرف والتقدير؛ ليجعل من ذلك ونحوه دليلاً على توحيد العبادة الذى هو المقصود الأول من بعثة الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع، ونظائر ما ذكر من الآيات كثير ولم يعرف عن طائفة بعينها القول بوجود خالقين متكافئين فى الصفات والأفعال .

ومن نقل عنهم من طوائف المشركين نسبة شئ من الآثار والحوادث إلى غير الله كقوم هود ، حيث قالوا فيما حكى الله عنهم :

﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) ﴾ [هود]

فإنما نسبوه إلى آلهتهم لزعمهم أنها وثيقة الصلة بالله، وإنها تملك الشفاعة عنده سبحانه لمن عبدها وتقرب إليها بالقرابين.

فهى فى زعمهم تملك لهم جلب النفع ودفع الضرر، لكن عن طريق الشفاعة لهم عند الله . ومن أجل هذه الشائبة من الشرك نبه الله سبحانه على بطلانه ، وأنكر على من زعمه .

فقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ من وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢)﴾ [المؤمنون]

فبين سبحانه أنه لو كان معه إله يشركه فى استحقاق العبادة لكان له خلق وتقدير وملك وقهر وتدبير، إذ لا يستحق العبادة إلا من كان كذلك، ليرجى خيره ونفعه، فيطاع أمره ويقصد قصده، ويخشى بأسه، فلا يعتدى على حدوده ولا ينتهك حماه. ولو كان له خلق وتقدير وملك وتدبير لعلا على شريكه وقهره إن قوى على ذلك ليكون له الأمر وحده، ولذهب كل بما خلق وتفرد بتدبير ما ملك إن لم يكن لديه من القوة ما يفرض بها سلطانه على الجميع، فإن من صفات الرب كمال العلو والكبرياء والقهر والجبروت .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣)﴾ [الإسراء]

على تقدير أن المراد : لاتخذوا سبيلاً إلى مغالبته وقهره ، أو الخروج عليه والتفرد عنه بما خلقوا وملكوا أما إن كان المعنى المراد : لاتخذوا سبيلاً إلى عبادته والقيام بواجب حقه رجاء رحمته وخوف عقابه ، فالآية فى توحيد الإلهية .

كقوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)﴾ [الإسراء]

وقد استخلص بعض العلماء من ذلك دليلاً سموه دليل التمانع ، وجعلوا جل همهم إثبات توحيد الربوبية به، قالوا : لو جاز أن يكون للعالم ربان يخلقان ويدبران أمره لأمكن أن يختلفا، بأن يريد أحدهما وجود شئ، ويريد الآخر عدمه، أو يريد أحدهما حركة شئ ويريد الخر سكونه، وعند ذلك إما أن ينفذ مرادهما، وذلك محال لما يلزمه من رفع النقيضين وعجز كل منهما، وإما أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر، فيكون الذى نفذ مراده هو الرب دون الآخر لعجزه، والعاجز لا يصلح أن يكون رباً .

ولو أن هؤلاء عنوا بتوحيد الإلهية، وصرفوا همتهم إلى بيان تفاصيله، وأجملوا القول فى توحيد الربوبية والاستدلال عليه اكتفاء بشهادة الفطرة وإقرار العباد به، وعلمه بالضرورة، وجعلوا البحث فيه وسيلة إلى توحيد العبادة ودليلاً عليه، لكانوا بذلك قد سلكوا طريقة القرآن ومنهج الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقصارى القول أن انتظام العالم علوه وسفله، وإحكام صنعه وحسن تنسيقه وشدة الأسر، وقوة التماسك بين أجزائه ووحداته دليل واضح على تفرد الله سبحانه بالربوبية ووحدانيته فى أفعاله ، وبرهان قاطع على إثبات ما أثبته لنفسه من كمال الأسماء والصفات، أو أثبته له الرسل عليهم الصلاة والسلام من ذلك إثباتاً صريحاً مفصلاً، لم يدع مجالاً للشك أو التأويل ولا سبيلاً إلى الريب أو التعطيل، فزالت به الشبهة وحصل به اليقين.

وعلى ذلك اجتمعت شهادة الفطرة والعقل الصريح والنقل الصحيح وصدق كل منهما الآخر .

وقد ذكر ابن القيم فى مدارج السالكين هذين الطريقين: طريق الوحى والخبر، وطريق الحس والعقل، وإليك نبذة من ذلك :

فمن الأول : قوله ومن تأمل كيفية ورود آيات الصفات فى القرآن والسنة علم قطعاً بطلان تأويلها بما يخرجها من حقائقها ، فإنها وردت على وجه لا يحتمل معه التأويل بوجه .

فانظر إلى قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) ﴾ [الأنعام]

وهل يحتمل هذا التقسيم والتنويع تأويل إتيان الله جل جلاله بإتيان ملائكته أو آياته ، وهل يبقى مع هذا السياق شبهة أصلاً أنه إتيانه بنفسه .

وكذلك قوله :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) ﴾ [النساء]

ففرق بين الإيحاء العام والتكليم الخاص وجعلهما نوعين ، ثم أكد فعل التكليم بالمصدر الرافع لتوهم ما يقوله المحرفون ، وكذلك قوله :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ

أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) ﴾
[الشورى]

فنوع تكليمه إلى تكليم بواسطة ، وتكليم بغير واسطة ، وكذلك قوله لموسى عليه السلام:

﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾ [الأعراف]

ففرق بين الرسالة والكلام، وإنما تكون الرسالة بكلامه. وكذلك قول النبى عليه الصلاة والسلام "إنكم ترون ربكم عياناً كما ترون القمر ليلة البدر فى الصحو، ليس دونه سحاب ، وكما ترون الشمس ليس دونها سحاب" والاحتراز ينافى إرادة التأويل ، ولا يرتاب فى هذا من له عقل ودين .

ثم قال : الطريق الثانى لإثبات الصفات هو دلالة الصنعة عليها؛ فإن المخلوق يدل على وجود خالقه، على حياته وقدرته وعلى علمه ومشيئته، فإن الفعل الاختيارى يستلزم ذلك استلزاماً ضرورياً وما فيه من الإتقان والإحكام، ووقوعه على أكمل الوجوه يدل على حكمة فاعله وعنايته، وما فيه من الإحسان والنفع ووصول المنافع العظيمة إلى المخلوق يدل على رحمة خالقه وإحسانه وجوده، وما فيه من آثار الكمال يدل على أن خالقه أكمل منه.

فمعطى الكمال أحق بالكمال، وخالق الأسماع والأبصار والنطق أحق بأن يكون سميعاً بصيراً متكلماً، وخالق الحياة والعلوم والقدر والإرادات أحق بأن يكون هو كذلك فى نفسه، فما فى المخلوقات من أنواع

التخصيصات هو من أدل شئ على إرادة الرب سبحانه ومشيئته وحكمته التى إقتضت التخصيص.

إلى أن قال : والإحسان إلى المطيعين، والقرب إليهم بالإكرام، وإعلاء درجاتهم يدل على محبته ورضاه، وعقوبته للعصاة والظلمة وأعداء رسله بأنواع العقوبات المشهودة تدل على صفة الغضب والسخط، والإبتعاد والطرد والإقصاء يدل على المقت والبغض . فهذه الدلالات من جنس واحد عند التأمل .

ولهذا دعا الله سبحانه فى كتابه عباده إلى الاستدلال بذلك على صفاته، فهو يثبت العلم بربوبيته ووحدانيته وصفات كماله بآثار صفته المشهودة، والقرآن مملوء بذلك ، فيظهر شاهد أسم الخالق من نفس المخلوق، وشاهد اسم الرازق من وجود الرزق والمرزوق، وشاهد أسم الرحيم من شهود الرحمة المبثوثة فى العالم .

إلى أن قال : وهكذا كل أسم من أسمائه الحسنى له شاهد فى خلقه وأمره، يعرفه من عرفه، ويجهله من جهله، فالخلق والأمر من أعظم شواهد أسمائه وصفاته، وكل سليم العقل والفطرة يعرف قدر الصانع وحذقه وتبريزه على غيره، وتفرده بكمال لم يشاركه فيه غيره من مشاهدة صنعته ، فكيف لا تعرف صفات من هذا العالم العلوى والسفلى وهذه المخلوقات من بعض صنيعه .

وإذا اعتبرت المخلوقات والمأمورات وحدتها بأسرها كلها دالة على النعوت والصفات وحقائق الأسماء الحسنى ، وعلمت أن المعطلة من أعظم الناس عمى ومكابرة.

ويكفى ظهور شاهد الصنع فيك خاصة ، كما قال تعالى:

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات]

فالموجودات بأسرها شواهد صفات الرب جل جلاله ونعوته وأسمائه ، فهى كلها تشير إلى الأسماء الحسنى وحقائقها ، وتنادى عليها وتخبر بها بلسان النطق والحال ، كما قيل :

تأمل سطـور الكائنـات فإنهـا　　من الملك الأعلى إليـك رسائـل

وقد خط فيها لو تأملت خطها　　ألا كل شئ ما خلق الله باطـل

تشـير باثبـات الصفـات لربـها　　فصامتها يهدى ومن هـو قائـل

فلست ترى شيئًا أدل بحسب تنوعها ، فهى تدل عقلاً وحساً وفطرة ونظراً واعتباراً ، وفى هذا المعنى قال الشاعر :

تأمل فى نبـات الأرض وانظـر　　إلـى آثـار مـا صـنع المليــك

عيـون من لجـين شاخصـات　　بأحـداق هـى الذهـب السـبيك

على قضب الزبرجد شاهدات　　بأن اللــه ليـس لــه شـريـك

وإذا ثبت بدلالة الصنعة على الصانع، وبأدلة السمع والفطرة وجود الله ووجوب وجوده وتفرده بكمال الصفات والأفعال، وجب على العباد أن يخلصوا له العبادة، وأن يسلموا وجوههم إليه فى السراء والضراء ، وأن يدعوه وحده رغبة ورهبة خفية وجهرة، فهذا هو مقتضى الفطرة ، وموجب العقل السليم، وبه جاء النقل الصحيح ،

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ

مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) ﴾ [البقرة]

فجعل سبحانه تفرده بالربوبية خلقاً للحضرين والسابقين، ووضعه الأرض للأنام وتذليله إياها ليمشوا فى مناكبها وينعموا برزقه، ورفعه السماء بغير عمد يرونها، وإنزاله لأمطار من السماء ليحيى بها الأرض بعد موتها ويخرج بها من الثمرات رزقاً لعباده باباً إلى توحيد الإلهية، وآية بينة على استحقاقه وحده العبادة.

وهذا هو الطريق الفطرى فى الحجاج، أعنى الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية ؛ فإن قلب الإنسان يتعلق أولاً بمصدر خلقه ومنشأ نفعه وضره ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الوسائل التى تقربه إليه وترضيه عنه وتوثق صلته به

فتوحيد الربوبية باب إلى توحيد الإلهية ، ومن أجل ذلك أجنح الله به على المشركين وقررهم به وأرشد إليه رسله وأمرهم أن يدعوا به أممهم .

قال تعالى :

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) ﴾ [المؤمنون]

فاستدل بتفرده بالربوبية وكمال التصرف وحمايته ما يريد أن يحميه على استحقاقه وحده العبادة ووجوب تفرده بالإلهية .

وهذا النوع من التوحيد هو المقصود الأهم من بعثة الرسل وإنزال الكتب وهو الذى بدأت به الرسل دعوتها، ووقعت فيه الخصومة ين الرسل وأممهم، وهو الذى شرع من أجله الجهاد، وقامت الحرب على ساقها بين الموحدين والمشركين .

وقال تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ① ﴾[النحل]

فأخبر أن البعث آت لا محالة ، ونزه نفسه عما زعمه المشركون من الشركاء ، ثم استدل على ذلك بآياته الكونية ، فقال

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ④ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑤ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ⑥ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⑦ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ⑧ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ⑨ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ⑩ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ⑪ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ

وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) ﴾[النحل]

فأخبر سبحانه عن البعث والتوحيد ، ثم أقام على ذلك الحجة بآياته الكونية التى لا يشاركه فيها أحد باعترافهم، ثم ختم البحث بنتيجة الاستدلال وهو التوحيد والقدوة على البعث ، وذلك قوله :

﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) ﴾[النحل]

وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ

السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥)﴾[يونس]

فقررهم سبحانه بما لا يسعهم إنكاره، ولا مخلص لهم من الاعترف به من تفرده بالرزق والملك والتدبير والإحياء والإماتة والبدء والإعادة والإرشاد والهداية ليقيم به عليهم الحجة فى وجوب طاعته دون سواه، وينكر عليهم حكمهم الخاطئ وشركهم الفاضح وعكوفهم على عبادة من لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وكذلك ما تقدم من قوله : ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن

يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾[يونس]

فأنكر سبحانه أن يكون معه من خلق ودبر وصرف وقدر، أو من يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء أو يولى ويعزل وينصر ويخذل، أو ينقذ من الحيرة ويهدى من الضلالة، أو من يبدأ لخلق ثم يعيده ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إلى غير ذلك مما استأثر الله به، وهذا مما استقر فى فطرهم واستيقنت به أنفسهم، ونطقت به ألسنتهم، وقامت به عليهم الحجة فيما دعت إليه الرسل من توحيد العبادة .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾[سبأ]

فأمره سبحانه أن يسلك فى دعوته لقومه طريق الفطرة والعقل، فيستدل بتفرد الله بالآيات الكونية على توحيد الإلهية، وأن يلين لهم الجانب

فى غير ذلة ولا مداهنة، ويتلطف معهم فى الدعوة والاستدلال من غير كذب ولا خداع ، حتى لا تأخذهم العزة بالإثم ، وذلك بين قوله :

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾ [سبأ]

فهذا من منهج القرآن والرسل فى الدعوة حجاج واستدلال ورفق فى القول، وأمر بالعرف، وحسن فى السياسة من غير مدارارة تذهب بالحق ، وفى معنى هذه الآية كثير، كمنارة إبراهيم ونوح وموسى وإخوانهم من النبيين لأممهم عليهم الصلاة والسلام .

ومن سلك طريق القرآن فى الدعوة والاستدلال، واهتدى بهدى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى الحجاج وحسن السياسة قوى يقينه ، وخصم مناظره، فإن فى ذلك الحجة والبرهان من جهتين: الأولى الخبر عن المعصوم، والثانية أنه موجب الفطرة ومقتضى العقل الصحيح .

الرســالة

الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام ركن من أركان الدين، فلا يستقيم لأحد دين ولا يقبل منه عمل إلا إذا أيقن برسالتهم ، وأذعن لكل ما جاؤا به من الشرائع كل حسب طاقته وبقدر ما بلغه من ذلك إجمالاً أو تفصيلاً .

قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)﴾[البقرة]

وفي الحديث " أن جبريل سأل النبى -عليهما الصلاة والسلام- عن الإيمان، فبينه بقوله : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره :

الأول : أن من تقدم من الرسل قد بشر بمن تأخر منهم ، وأخذ عليه وعلى من تبعه العهد والميثاق إن أدركهم أن يؤمنوا به وينصروه ، وأن من تأخر منهم مصدق لمن بين يديه منهم ، فمن كفر بواحد منهم تقدم أو تأخر فهو كافر بجميعهم .

الثانى : أن الأمر الذى ثبتت به رسالة من آمن به منهم ، ومن أجله صدقه ، وهو المعجزة ، قد أجرى الله مثله على يد الأنبياء تصديقاً لهم فى دعوى الرسالة ، قل صلى الله عليه وسلم "ما من الأنبياء نبى إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىَّ فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة".

فكان إيمانه بمن آمن به ، وكفره بغيره منهم اتباع للهوى لا لدليل لنبوة وإلا لآمن بالجميع ، ومن كان إيمانه تبع هواه ولو تغير هواه لتغير إيمانه فليس بمؤمن فى حكم الشريعة.

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١) ﴾[النساء]

والقول فى رسالة الرسل عليهم الصلاة والسلام يتشعب شعباً كثيرة ويرجع إلى مباحث عدة، يرجع إلى إمكان أن يوحى الله إلى بعض من يصطفيه من عباده بشريعة ليهدى بها أمته سواء السبيل.

ثم إلى حاجة العالم إلى هذه القيادة الرشيدة والشريعة المستقيمة ليكون إرسالهم على مقتضى الحكمة وموجب العدالة الإلهية ، ثم إلى بيان ما يؤيدهم الله به من الآيات البينات والمعجزات الباهرات التى تدل على صدقهم فيما ادعوه من الرسالة والبلاغ عن الله لتقوم بذلك الحجة وينفع العذر.

ثم إلى بيان ما يتعلق بذلك من تنوع المعجزات وحكمته، وبيان الفوارق بين المعجزات والسحر والكهانة ، وبيان ما يعد الله به رسله قبل الرسالة من السيرة الحميدة والاخلاق الفاضلة ؛ ليكون ذلك أقرب إلى أن تستجيب لهم أممهم ، وتتقبل عنهم ما دعوهم إليه .

وقد تكفل الله ببيان ذلك كله خبراً وعقلاً وفطرة أنزل على رسله،

فعلمهم سبحانه طريق الحجة والبرهان التى يخضع لها العقل الصريح، وسلك بهم الطريقة المثلى التى لا يرتاب فيها إلا من سفه نفسه وأنكر فطرته.

وإليك تفصيل ذلك؛ لتعلم أن الشرائع الإلهية تعتمد فى أصولها الحجة والإقناع. وإن جاء فى فروعها وتفاصيل أصولها ما قد يعجز العقل عن إدراك حكمته، فطريق ثبوت مثل هذا الخبر عن المعصومين عليهم الصلاة والسلام .

ا - إمكان الوحى والرسالة :

لا يبعد فى نظر العقل ، ولا يستحيل فى تقدير الفكر أن يختص واهب النعم ومفيض الخير -سبحانه- بعض عباده بسعة فى الفكر ورحابة فى الصدر وحسن قيادة وكمال صبر وسلامة فى الأخلاق ؛ ليعدهم بذلك لتحمل أعباء الرسالة، ويكشف لهم عما أخفاه عن غيرهم ، ويوحى إليهم بما فيه سعادة الخلق وصلاح الكون رحمة للعالمين، وإعذار إلى الكافرين، وإقامة للحجة على الناس أجمعين ، فإنه سبحانه بيده ملكوت كل شئ وهو الفاعل المختار، لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع، وهو على كل شئ قدير .

و آية ذلك :

أنا نشاهد الله سبحانه خلق عباده على طرائق شتى فى أفكارهم ومذاهب متباينة فى مداركهم، فمنهم من سما عقله واتسعت مداركه واطلع من الكون على كثير من أسراره ، حتى وصل بما منحه الله من ثاقب الفكر

ويسر له من التجارب إلى أن اخترع للناس ما رفع إليه من أجله أولو الألباب رؤوسهم إعجاباً به، وشهادة له بالمهارة، وأنكره عليه صغار العقول، وعدوه شعوذة وكهانة أو ضرباً من ضروب السحر ، ولم يزالوا كذلك حتى استبان لهم بعد طول العهد ومر الأزمان ما كان قد خفى عليهم فأذعنوا له وأيقنوا بما كانوا به يكذبون .

ومنهم من ضعف عقله، وضاقت مداركه فعميت عليه الحقائق واشتبه عليه الواضح منها ، فأنكر البديهيات ، ورد الآيات البينات ، ومنهم من انتهى به إنحراف مزاجه واضطراب تفكيره إلى أن أنكر ما تدركه الحواس كطوائف السوفسطائية .

وكما ثبت التفاوت بين الناس فى العقول والأفكار بضرورة النظر وبديهة العقل ، ثبت التفاوت بينهم – أيضاً – فى قوة الأبدان وضعفها وسعة الأرزاق وضيقها ونيل المناصب العالية والاستيلاء على زمام الأمور وقيادة الشعوب، والحرمان من ذلك إما للعجز وإما للقصور أو التقصير وإما لحكم أخرى يعلمها عن الكثير منها لمن تدبر القرآن وعرف سيرة الأنبياء وتاريخ الأمم وما جرى عليها من أحداث .

فمن شاهد ما مضت به سنة الله فى عباده من التفاوت بينهم فى مداركهم وقواهم وإرادتهم، وغير ذلك من أحوالهم لم يسعه إلا أن يستسلم للأمر الواقع ، ويستيقن أن الله ينبئ من شاء من خلقه ويصطفى من أراد من عباده

﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) ﴾[النساء]

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) ﴾[القصص]

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) ﴾[الزخرف]

بل هذا الحوار وأمثاله مما دار بين الرسل وأممهم يدل على إنهم لم يكونوا ينكرون أصل الرسالة، ولم يكونوا يستبعدون أن يصطفى الله روحاً طيبة لوحيه، أو يختار نفساً طاهرة لتبليغ رسالته وهداية خلقه، لكنهم استبعدوا أن يكون ذلك الرسول من البشر، وظنوا خطأ أنه إنما يكون من الملائكة، زعماً منهم أن البشرية تنافى الرسالة.

فمهما صفت روح الإنسان وسمت نفسه واتسعت مداركه فهو فى نظرهم أقل من أن يكون أهلاً لأن يوحى الله إليه ، وأحقر من أن يختاره سبحانه لتحمل أعباء رسالتهم. وقد ذكر الله عنهم هذه الشبهة ، وردها بما لا يسع العاقل إلا قبوله والإذعان له، ومن نظر فى الكتب المنزلة وتصفح ما رواه علماء الأخبار مما دار بين الأنبياء وأممهم من الجدال والحجاج اتضح له ذلك .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦)

فقَالَ الْمَلأُ الَّذِيـــنَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِيـــنَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الـــرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنـــتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِيـنَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِيـنَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ الـلَّهُ خَيْرًا الـلَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الـظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) ﴾[هود]

فأنظر كيف فروا من ميدان المناظرة إلى استعجال الهلاك، وطلبوا ذلك من نوح ، فبين لهم أن ذلك إلى الله لا إليه ، إن عليه إلا النصح والبلاغ المبين وإقامة الحجة والبرهان.

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالـنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَؤُلْقِيَ الـــذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ (٢٦) ﴾[القمر]

فذكر شبهتهم ثم ردها بما آتاه من المعجزة الدالة على صدقه، وبنصره وإهلاكهم ؛ فإن العاقبة للمتقين .

وقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) ﴾[الأنعام]

وقال تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) ﴾[إبراهيم]

إلى غير ذلك من الآيات التى دلت على أن إنكار الأمم لم يكن لأصل الرسالة إنما كان لبعث رسول إليهم من جنسهم .

ولو قال قائل : إن أئمة الكفر وزعماء الضلالة كانوا يوقنون بإمكان أن يرسل الله رسولاً من البشر، غير إنهم جحدو ذلك بألسنتهم حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، وتمويهاً على الطغام من الناس

وخداعاً لضعفاء العقول، وتلبيساً عليهم خشية أن يستجيبوا إلى مقتضى الفطرة، ويسارعوا إلى داعي الدين ومتابعة المرسلين .

-لو قال ذلك قائل- ما كان بعيداً عن الحقيقة ولا مجافياً للصواب ، بل بدرت منهم البوادر التي تؤيد ذلك وتصدقه، وسبق إلى لسانهم ما يرشد البصير إلى ما انطوت عليه نفوسهم من الحسد والاستكبار أن يؤتى الرسل ما أوتو دونهم ، وأن ينالوا من الفضيلة وقيادة الأمم إلى الإصلاح ما لم ينل هؤلاء.

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤) ﴾ [الإنعام]

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

وقال تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) ﴾ [الزخرف]

هذا وليس بدعاً أن يختار الله نبياً من البشر، ويبعث إليهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة، بل ذلك هو مقتضى الحكمة وموجب العقل .

فإن الله سبحانه قد مضت سنته فى خلقه أن يكونوا أنواعاً مختلفة على طرائق شتى وطبائع متباينة، لكل نوع غرائزه وميوله، أو خواصه ومميزاته التى تقتضى الأنس والتآلف بين أفراده، وتساعد على التفاهم والتعاون بين جماعاته، ليستقيم الوجود، وينتظم الكون.

فكان اختيار الرسول من الأمة أقرب إلى أخذها عنه وأدعى إلى فهمها منه وتعاونها معه لمزيد التناسب ومكان الإلف بين أفراد النوع الواحد، ولو كان عمار الأرض من الملائكة لاقتضت الحكمة أن يبعث الله إليهم ملكاً رسولاً.

وقد أرشد الله إلى ذلك فى رده على من استنكر أن يرسل إلى البشر رسولا منهم.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥) ﴾ [الإسراء]

ولكن شاء الله أن يجعل عمار الأرض من البشر، فاقتضت حكمته أن يرسل إليهم رسولاً من أنفسهم ، بل إقتضت حكمته ما هو أخص من ذلك ليكون أقرب إلى الوصول للغاية، وتحصيل المقصود من الرسالة، فكتب على نفسه أن يرسل كل رسول بلسان قومه.

قال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) ﴾ [إبراهيم]

ولو قدر أن الله أجاب الكفار إلى ما طلبوا من إرسال ملك إليهم لجعل ذلك الملك فى صورة رجل؛ ليتمكنوا من أخذ التشريع عنه والاقتداء به فيما يأتى ويذر، ويخوض معهم ميادين الحجاج والجهاد، وإذا ذاك يعود الأمر سيرته الأولى، كما لو أرسل الله رسوله من البشر، ويقعون فى لبس وحيرة ، جزاءاً وفاقاً .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام]

ومن نظر فى آيات القرآن، وعرف تاريخ الأمم له أن سنة الله فى عباده أن يرسل إليهم رسولاً من أنفسهم .

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾ [النحل]

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) ﴾ [الفرقان]

وفى ذلك الرد الواضح على من زعم منافاة البشرية للرسالة ببيان سنة الله فى رسله وحكمته فى اختيارهم على نحو يكفل المصلحة وينتهى بالأمة إلى المقصود .

٢- حاجة العلم إلى الرسالة :

الأفعال الاختيارية منها ما تحمد عاقبته، فيجمل بالعاقل فعله والحرص عليه، ولو ناله فى سبيل تحصيله حرج ومشقة، وأصابه منه فى عاجل أمره كثير من الآلام. ومنها ما تسوء مغبته، فيجدر بالعاقل أن يتماسك دونه، وأن يتنكب طريقه خشية شره، وطلباً للسلامة من ضره وإن كان فيه من اللذات العاجلة التى تغرى الإنسان بفعله، وتخدعه عما فيه سلامته.

غير أن العقل قد يقصر فى كثير من شئونه عن التمييز بين حسن الأفعال وقبيحها ونافعها وضارها، فلا بد له من معين يساعدة على إدراك ما قصر عنه إدراكه.

وقد يعجز كلياً عن العلم بما يجب عليه علمه؛ لأنه ليس فى محيط عقله، ولا دائرة فكره، مع ما فى علمه به من صلاحه وسعادته، وذلك كمعرفته بالله واليوم الآخر والملائكة تفصيلاً، فكان فى ضرورة إلى من يهديه الطريق فى أصول دينه ، وقد يتردد فى أمر إما لعارض هوى وشهوة أو لتزاحم الدواعى واختلافها، فيحتاج إلى من ينقذه من الحيرة، ويكشف له عن حجاب الضلالة بنور الهدى، فبان بذلك حاجة العالم إلى رسول يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويكلمهم بمعرفة ما قصرت عنه أفاقهم، ويوقفهم على حقيقة ما عجزوا عنه، ويدفع عنهم آلام الحيرة ومضرة الشكوك .

أضف إلى ذلك : أن تفاوت العقول وتباين الأفكار واحتلاف الأغراض والمنازع ينشأ عنه تضارب الآراء وتناقض المذاهب، وذلك يفضى إلى سفك الدماء ونهب الأموال والاعتداء على الأعراض وانتهاك الحرمات، وبالجملة

ينتهى إلى تخريب وتدمير لا إلى تنظيم وحسن تدبير، ولا يرتفع ذلك إلا برسول يأتى بفضل الخطاب، ويقيم الحجة، ويوضح المحجة، وينشر العدل.

فاقتضت حكمة الله أن يرسل الرسل، وينزل الكتب رحمة بعبادة وإقامة للعدل بينهم، وتبصيراً لهم بما يجب عليهم من حقوق خالقهم، وإعانة لهم على أنفسهم، وإعذار إليهم؛ فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب، ففى الحديث أن سعد بن عبادة قال : لو رأيت رجلاً ذلك مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : "تعجبون من غيره سعد لأنا أغير منه، والله أغير منى، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله، ومن أجل ذلك وعد الجنة".

ومما تقدم يعلم أن إرسال الله للرسل مما يدخل فى عموم قدرته ، وتقتضيه حكمته فضلاً من الله ورحمة، والله عليم حكيم، وهذا هو القول الوسط والمذهب الحق .

وقد أفرط المعتزلة فقالوا : إن بعثة الرسل واجبة على الله أبانة للحق وإقامة للعدل ورعاية للإصلاح وهذا مبنى على ما ذهبوا إليه من القول بالتحسين والتقبيح العقليين وبناء الأحكام عليهما - ولو لم يرد شرع - وهو أصل فاسد .

وتطرف البراهمة، فأحالوا أن يصطفى الله نبياً ويبعث من عباده رسولاً، وزعموا أن إرسالهم عبث، ربما لعدم الحاجة إليهم اعتماداً على العقل فى التمييز بين المصالح والمفاسد، واكتفاءاً بما يدركه مما يحتاج إليه

العباد فى المعاش والمعاد ، وإما لاستغناء الله عن عباده ، وعدم حاجته إلى أعمالهم، خيراً كانت أو شراً؛ إذا هو سبحانه لا ينتفع بطاعتهم ولا يتضرر بمعصيتهم .

وقد سبق بيان عدم كفاية العقل فى درك المصالح والمفاسد ، وحاجة العالم إلى الرسالة تحقيقاً لمصالحهم ، مع غنى الله عن الخلق وأعمالهم ، فليس إرسالهم عبثاً ، بل هو مقتضى الحكمة والعدالة .

٣ - طريقة الرسل فى إثبات العبادة :

لم يدع الأنبياء أممهم إلى الإيمان بما جاءوا به من الشرائع دون بينة أو برهان يكون شاهد صدق على إثبات أن ما دعوهم إليه وحى من الله وشرعه الذى ارتضاه لعباده دينا، ولم يلزموهم بذلك دون إقناع تقوم به الحجة ويسقط به العذر.

بل تحدى كل رسول أمته بما آتاه الله من الآيات البينات، والمعجزات الباهرات التى يخضع لها العقل السليم، وتتصاغر أممها قوى البشر.

وطلب منهم أن يأتوا بمثل ما ظهر على يده من خوارق العادات - وإنى لهم ذلك وهو من اختصاص واهب القوى والقدر - فلما عجزوا عنه كان دليلاً واضحاً على صدقهم فى دعوى الرسالة، وأن ما جاءوا به شرع الله ودينه الحق .

فإن لله سبحانه من كمال الحكمة والعدالة وسعة الرحمة والجود وسابغ الكرم والإحسان ما يمتنع معه أن يؤيد متنبئاً كذاباً يخدع العباد ويفسد عليهم أمر دينهم ودنياهم؛ بل يستحيل فى حكمه وعدله أن يبقى عليه

أو يهمله؛ لما فى ذلك من التلبيس والتضليل وفساد الكون وتخريبه ، وهو شر محض، والشر ليس إليه سبحانه، ففى الحديث "الخير كله بيديك والشر ليس إليك".

وقد تبين سبحانه أنه بالمرصاد لمن أفترى عليه كذباً ، أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه بشئ.

فقال تعالى: ﴿ ولَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) ﴾ [الحاقة]

وإذا أبت حكمة الله وسعة رحمته أن يترك عباده سدى فلا يرسل إليهم رسولاً يأمرهم وينهاهم، ويبين لهم معالم الهدى وشرائع الحق، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة، فأولى فى حكمة العدل ورحمته الواسعة أن يقتضى على المتنبئين كذباً وإفتراء، وأن يعالجهم بالعقوبة والهلاك رحمة للعالمين وتمييزاً بين رسله الصادقين والمتنبئين الكاذبين .

٤ - الفرق بين المعجزة والسحر :

كل ما لم تبلغه طاقة البشر ولم يقع فى دائرة قدرتهم فهو معجز ، وقد تطلق المعجزة على ما خرج من طاقة العامة من الخلق دون الخاصة ، كبعض المسائل العلمية المشكلة، واختراع بعض الآلات والأجهزة الحديثة ونحوها مما لا يقوى عليه إلا الخواص من الناس، كالغوص والسباحة وحمل الأثقال، وهذا عجز نسبى يكون فى مخلوق دون الاخر .

والمراد من المعجزة : هذا الأمر الخارق للعادة الخارج عن سنن الله

العامة فى خلقه الذى يظهره الله على يد مدعى النبوة تصديقاً له فى دعواه وتأييداً له فى رسالته مقروناً بالتحدى لأمته ومطالبتهم أن يأتوا بمثله ؛ فإذا عجزوا كان ذلك آيه من الله على اختياره إياه وإرساله إليهم بشريعته .

أما السحر : فهو فى اللغة كل ما دق ولطف وخفى سببه، فيشمل قوة لبيان وفصاحة اللسان؛ لما فى ذلك من لطف العبارة ودقة المسلك، ويشمل النميمة؛ لما فيها من خفاء أمر النمام وتلطفه فى خداع من نم بينهما ليتم له ما يريد من الوقيعة، ويشمل العزائم والعقد التى يعقدها الساحر وينفخ فيها مستعيناً بالأرواح الخبيثة من الجن ليصل بذلك فى -زعمه- إلى ما يريد من الأحداث والمكاسب .

فيتلخص الفرق بين المعجزة والسحر فيما يأتى :

أ - المعجزة ليست من عمل النبى وكسبه، إنما هى خلق محض من الله على خلاف سننه فى الكائنات، وقد طلب من محمد ﷺ آية، فقال بإرشاد مولاه :

قال تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) ﴾ [الأنعام]

وقال لمن استعجلوا ما توعدهم به بأمر ربه : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) ﴾ [الأنعام]

أما السحر فمن عمل الساحر وكسبه سواء أكان تعويذات أم بيانا أم نميمة أم غير ذلك، وله أسبابه ووسائله التى قد تنتهى بمن عرفها ومهر فيها وعمل بها إلى مسبباتها، فليس خارقاً للعادة ولا مخالفاً لناموس الكون فى ربط الأسباب بمسبباتها والوسائل بمقصدها .

ب – المعجزة تظهر على يد مدعى النبوة، لتكون آية على صدقه فى دعوى الرسالة التى بها هداية الناس من الضلالة وإخراجهم من الظلمات إلى النور؛ والأخذ بأيديهم إلى ماينفعهم فى عقائدهم وأخلاقهم وأبدانهم وأموالهم. والسحر خلق ذميم أو حرفة أو صناعة يموه بها الساحر على الناس لكسب العيش من غير حلة، ويفرق بها بين المرء وزوجه والصديق وصديقة، وبالجملة يفسد بها أحوال الأمة فى خفاء والناس عنه غافلون.

جـ – سيرة من هرت على يده المعجزة حميدة وعاقبته مأمونة، فهو صريح فى القول ولفعل، صادق اللهجة، حسن العشرة ، سخى كريم عفيف عما فيأيدى الناس، يدعو إلى الحق وينافح[1] عنه بقوة وشجاعة. أما الساحر : فسيرته ذميمة ومغبته وخيمة، خائن خدا ع سئ العشرة، يأخذ ولا يعطى، يدعو إلى الباطل، ويسعى فى سترة خشية أن يفتضح أمره ويكشف سره فلا يتم له ما أراد من الشر ولفساد .

د – من ظهرت على يده المعجزة يقود الأمم والشعوب إلى الوحدة والسعادة، ويهديها طريق الخير، وعلى يده يسود الأمن والسلام وتفتح البلاد، ويكون العمران. والساحر آفة الوحدة ونذير الفرقة والتخريب والفوضى والاضطراب .

(١) ينافح : يدافع

٥ - تنوع المعجزة مع بيان الحكمة فى ذلك :

آيات الأنبياء التى أيد الله بها رسله قد اختلفت أنواعها، وتباينت مظاهرها وأشكالها إلا أنها تجتمع فى أن كلا منه قد عجز البشر عن أن يأتوا بمثله منفردين أو مجتمعين، فكانت بذلك شاهد صدق على الرسالة، وحجة قاطعة تخرس الألسنة وينقطع عندها الخصوم، ويجب لها التسليم والقبول.

ويغلب أن تكون معجزة كل رسول مناسبة لما انتشر فى عصره وبرز فيه قومه، وعرفوا بالمهارة فيه؛ ليكون ذلك أدعى إلى فهمها، وأعم فى دلالتها على المطلوب، وأمكن فى الإلزام بمقتضاها .

ففى عهد موسى انتشر السحر، ومهر فيه قومه حتى أثروا به على النفوس، وسحروا أعين الناس، وأوجس فى نفسه خيفة منه من شهده وإن كان عالى الهمة قوى العزيمة، فكن ما آتى الله نبيه موسى فوق ما تبلغه القوى والقدر، وما يدرك بالأسباب والوسائل، وقد أوضح الله ذلك فى كثير من الآيات.

قال تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) ﴾[طه]

ولهذا بهت السحرة وبطل ما جاءوا به من التمويه والتخييل وامتاز الحق من الباطل، قال تعالى فى بيان ذلك فى المباراة التى كانت بين موسى عليه السلام والسحرة :

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) ﴾ [الشعراء]

وفى عهد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام برع بنو إسرائيل فى الطب، فكان مما آتاه الله لنبيه عيسى عليه السلام أن يصور من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله إلى غير ذلك من الآيات التى ثبتت بها رسالته، وقامت بها الحجة على قومه .

وفى عهد محمد ﷺ كان العرب قد بلغوا الغاية فى الفصاحة وقوة البيان، وجرت الحكمة على ألسنتهم، حتى أتخذوا ذلك ميداناً للسباق والمباراة، فأنزل الله القرآن على رسوله ﷺ، فكانت بلاغته وبيانه وما تضمنه من الحكم والأمثال جانب ما كان من تأييد إعجازه ، قال ﷺ "ما من الأنبياء نبى إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة".

معجزات الأنبياء
لا تنحصر فيما تحدى به كل نبى قومه

وليست معجزات موسى وعيس ومحمد عليهم الصلاة والسلام قاصرة على ما ذكر، وإنما ذلك بيان لما تحدى به كل منهم قومه، وجعله قاعدة يبنى عليها دعوته، ويثبت بها شريعته وإلا فلهؤلاء وغيرهم من الأنبياء كثير من الآيات البينات والدلائل الواضحات التى دلت على صدقهم سوى ما تحدى به كل نبى قومه .

منها ما يرجع إلى سيرتهم قبل الرسالة ، فإن الله قد أعدهم لتحمل أعباء رسالته، ومنها ما يرجع إلى ثبات جأشهم وقوة بأسهم فى مقام الدعوة والجهاد فى سبيل الله نصرة للحق ونشراً له بنفسه وبمن آمن معه ، وما أقلهم عدداً وأضعفهم جاهاً ، مع غنى خصومهم وكثرة عَددهم وعُددهم وقوة سلطانهم، إلى غير ذلك مما يدل على صدق الداعى فى دعوته ، وكمال يقينه بها.

ومنها ما يرجع إلى سلامة الشريعة التى يدعون إليها ، وحكمتهم فى حمل الناس عليها، وقوة حجاجهم فى الدفاع عنها، وما شوهد من آثارها فى صلاح من اهتدى بها من الأمم فى الدولة والسياسة والاجتماع والاقتصاد والحرب والسلم وغير ذلك من أحوال الشعوب.

حتى إذا حرفوها عن مواضعها وتأويلها على غير وجهها أو أعرضوا عنها وتركوا العمل بها دالت دولهم وساءت حالهم، فإن العاقبة للمتقين ، والخيبة والخسران على المفسدين .

ومن ذلك يتبين أن الرسالة ليست شعوذة ولا كهانة ، فإن الرسل عرفوا بالصدق والأمانة، والشياطين إنما تنزك على من يجانسهم فى الكذب والافتراء والإفك والبهتان. قال تعالى:

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) ﴾ [الشعراء]

ولو لمست الشياطين السماء استراقاً للسمع أو طلباً للوحى ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ، قال تعالى فى شأن القرآن :

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) ﴾ [الشعراء]

وليست الرسالة أيضاً من جنس ما تجود به قريحة الشعراء، وتمليه عليهم مشاعرهم مما تهواه نفوسهم، فإن الشعراء -إلا من عصم الله- يغلب عليهم أن يسلكوا كل فج ، ويضربوا فى كل واد، ومن سلك سبيلهم كان على شاكلتهم فى الغى والفساد .

أما الرسل فقد جاءوا بالهدى ودين لحق ، ومن سلك سبيلهم كان على بصيرة فى عمله وبينة من أمره واستقامة فى سيره، قال تعالى:

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾ [الشعراء]

ومن المعجزات ما يرجع إلى آيات حسيه أكرم الله بها رسله ومن آمن بهم من تفريج كربة وإزالة شدة ، أو خوارق عادات طلبتها الأمة بغياً وعناداً ، كانشقاق القمر، فأجيبت إليها دفعاً للحرج عن الرسل وزيادة فى التثبيت لهم والإعذار إلى من كفر بهم، ومنها ما يرجع لداود عليه السلام على خلاف السنة الكونية، ليكون ذلك آية له وكرامة ، وليكون سعة للعباد ورحمة لهم، وكتسخير الريح والطير والجبال والجن لسليمان عليه السلام ، إلى غير ذلك مما لا يحصيه إلا الله .

ومن اطلع على قصص الأنبياء فى القرآن وكتب السير وجد الكثير من ذلك، وسأذكر جملة منها بعد ترشيد إلى ما ورائها مما لم يذكر إن شاء الله .

بين سبحانه لرسوله محمد ﷺ فى كثير من قصص القرآن الطريقة المثلى التى يثبت بها رسالته ويحاج بها أمته، وأرشده إلى كون ذلك القصص آية بينة توجب عليهم أن يستجيبوا لما دعاهم إليه من التصديق برسالته ، والإيمان بسائر ما جاءهم به من عند الله .

من ذلك قصة يوسف عليه الصلاة والسلام :

إن هذه القصة فيها كثير من العجائب والعبر والعات والأحكام والأخلاق وألوان الابتلاء والامتحان والفضل والإحسان، والذى أقصد إليه من مباحثها أمرين لمزيد اتصالهما بما أنا بصدد الكلام عليه. الأول : كيف كانت هذه القصة معجزة لرسول الله محمد ﷺ، والثانى : كيف كانت دليلاً على أن الله يعد رسله فى حياتهم الأولى قبل الرسالة لتحمل أعبائها حين إرسالهم إلى أممهم.

أما الأول :

يوسف عليه الصلاة والسلام فى القرآن مفصلة؛ لتكون آية، بل آيات على نبوة رسوله محمد ﷺ، وبيان ذلك : أنه كان أمياً لم يقرأ شيئاً من كتب الأولين ، ولا درس شيئاً من تاريخهم ، ولاخط من ذلك شيئاً بيمينه حتى يرتاب فى أمره ويُتهم بأنه تكلم بما قرأ أو درس.

قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ [العنكبوت]

بل كان من الغافلين عن قصة يوسف وأمثالها، لم تخطر له ببال ، ولم تقرع له سمعاً قبل أن يوحى الله بها إليه ، ويذكرها له فى محكم كتابه ، قال تعالى فى مطلع سورة يوسف :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾ [يوسف]

وقال بعد ذكر يوسف لرؤياه وعرضها على أبيه ووصية أبيه له :

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧) ﴾ [يوسف]

ولم تكن قصة يوسف بالأمر الذى اشتهر فى العرب، وتناولوه بالحديث فيما بينهم، بل كانت غيباً بالنسبة إليهم، ولا كان محمد مع يوسف وإخوته، ولا شهد مكرهم به، ولا كيدهم له فيتهم بأنه تكلم بأمر شهده أو انتشر بين قومه، قال تعالى لنبيه محمد فى ختام قصة يوسف عليهما

الصلاة والسلام: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) ﴾ [يوسف]

ولا يسع أحد أن يقول إنه عرف تفاصيل القصة اليهودية، فإن السورة مكية، واليهود كانوا يعيشون بالشام والمدينة وما حولها، ولم يعرف عنه أنه اتصل بهم قبل الهجرة ، ولا دارسهم شيئاً من العلوم، ولو كان ثم شئ من ذلك لانكشف أمره لطول العهد وكثرة الخصوم وحرج قومه من دعوته، وسعيهم جهدهم فى الكيد له والصد عنه وحرصهم على تشويه سمعته والقضاء عليه وعلى دعوته حتى رموه بالسحر والكهانة والجنون، واتهموه زوراً بالكذب ، وهو فى قرارة أنفسهم الصادق الأمين.

وتبادلوا الرأى فيما يوقعونه به من حبسه أو طرده من بينهم وتشريده، وانتهى أمرهم بالإتفاق على قتله، فأنجاه الله من كيدهم، وكتب له الهجرة إلى المدينة حيث عز الإسلام وقامت دولته، قال تعالى:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الانفال]

فقوم هذا شأنهم معه لا يخفى سبيلاً عليه بذلك ولم يضطروا إلى الافتراء عليه، ولا إلى التفكير فى قتله أو تشريده ولا إلى نشوب الحرب بينه وبينهم سنين طويلة ولم يلجئوا إلى اتهامه تهمة تحمل ردها فى طيها، فقد اتهموه برجل أعجمى بمكة وادعوا أنه يعلمه، فسفه الله أحلامهم وألقمهم الحجر، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

وليست قصة يوسف خبراً مقتضياً عبر عنه بالجملة أو الجملتين، فيقال إن صدقه فى الحديث عنها وليد الصدفة والاتفاق، بل هى قصة كثيرة العجائب متشبعة الموضوعات، وقعت بين أطراف مختلفة فى أزمان متباعدة، فمن رؤيا صادقة إلى مؤامرة، ثم نجاة يتبعها نيه، ثم إيواء ... إلى مراودة يتبعها هم، ثم عصمة من الفحشاء ... إلى سجن فيه دعوة إلى التوحيد مع رفق وحسن سياسة وتأويل للرؤيا أصدق تأويل، يتبع ذلك خروجه عليه السلام من السجن بريئاً من التهمة، وتوليه شئون الدولة واجتماع إخوته به مع معرفته لهم وبإنكارهم إياه، وما أكثر ما دار بينه وبينهم من الأحاديث وما جرى من الأحداث ...

إلى أن انتهى ذلك بتعريفه لهم بنفسه وعفوه عنهم وحضور أبويه إليه على خير حال إلى غير ذلك من التفاصيل التى يعرفها البصير بكتاب الله. وقد سيقت القصة مفصلة فى جميع نواحيها مستوفاة فى جميع فصولها فى أدق عبارة وأحكم أسلوب .

أفيعقل بعد ذلك أن يقال إن صدقه عليه الصلاة والسلام فيما سرده من قضاياها ووقائعها وعجائبها على هذا النهج الواضح والطريق السوى وليد الصدفة والاتفاق .

ختم سبحانه سورة يوسف بمثل ما بدأها به من الإرشاد إجمالاً إلى القصد الذى من أجله سيقت القصة، وهو أن تكون آية على نبوة محمد ﷺ وصدقه فيما جاء به من التشريع ، وأن قصة يوسف ونحوها مما نزل

به الوحى مستقى من المشكاة التى أخذ منها الأنبياء، فليس حديثاً مفترى ولكنه تصديق لما بين يديه من كتب المرسلين، وتفصيل لما يحتاج إليه المكلفون من التشريع فى معاشهم، وجماع الهداية والرحمة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

أفيمكن أن تكون هذه القيادة الرشيدة بهذا التشريع المستقيم من إنسان أمى عاش فى أمة أمية من عند نفسه دون وحى من الله ؟ كلا إنها العناية الربانية والرسالة الحقة، والوحى الصادق المبين، نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون رحمة للعالمين:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ [يوسف]

أما الثانى :

فإن فى تفاصيل القصة كثيراً من الأسرار والعجائب التى يعد الله بها رسله، ويهيئ بها أنبياءه لقيادة الأمم وسياسة الشعوب من أخلاق سامية وآداب عالية وحكمة بالغة وقوة عزيمة وعقائد صحيحة ، وبيان ذلك من وجوه كثيرة :

أ - منها صفاء روح يوسف، ونقاء سريرته، وهذا واضح من الرؤيا الصادقة التى رآها فى صغر سنه، وأول نشأته، فتحقق تأويلها بسجود أبويه وإخوته له فى كبر سنه وختام حياته،

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيــــه يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) ﴾ [يوسف]

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيــلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيــفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيــمُ الْحَكِيــمُ (١٠٠) ﴾ [يوسف]

ب – ومنها ما خصه الله به من المميزات التى زادت تعلق والده به وحبه له ، وحملت إخوته على التآمر عليه والكيد له ، فأشار بعضهم بقتله ليخلو لهم وجه أبيهم وتطيب لهم الحياة مع أبيهم من بعده، ورأى آخرون أن فى إبعاده عن أبيه الكفاية، فلما أجمعوا أمرهم على ذلك، ورموه فى غيابة الجب، أوحى الله إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون، إيناساً له وإزاحة للغمة عن نفسه، وهيأ له من أخرجه من البئر، لكنهم باعوه بثمن بخس دراهم معدودة ، فرعاه الله وجعله عند من يكرم مثواه ، ومكن له فى الأرض ، وعلمه من تأويل الأحاديث.

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنــفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) ﴾[يوسف]

جـ - ومنها الحلم والصفح الجميل وسعة الصدر والصبر على البلاء، فإنه بعد أن مكن الله له وجعله على خزائن الأرض، واجتمع بإخوته لم ينتقم لنفسه، بل صفح عن الزلة، وعفا عند المقدرة، واكتفى بالإشارة فى إشعارهم بما سبق من سوء صنيعهم معه.

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) ﴾ [يوسف]

د - ومنها عفة فرجه ونزاهة نفسه مع توفير دواعى الشهوة وتهيؤ أسباب الجريمة، من تكرار الخلوة بامرأة العزيز، ومزيد الخلطة، ودعوتها إياه للفاحشة، وحياته معها فى بيتها، وأخذها الحيطة بإغلاق الأبواب.

لقد كان يوسف من المخلصين لله الواثقين به، فاستعاذ بربه ولاذ بجنابه، واستقبح أن يقابل جميل من أحسن مثواه بخيانته فى عرضه، وذكر ما يصيب الخائنين فى العواقب من الدمار والخسارة، وبذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء، وأظهر براءته على رؤوس الأشهاد.

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ

كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾ [يوسف]

إلى أن قال تعالى حكاية عن عزيز مصر بعد الشهادة عنده ببراءة يوسف:

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾ [يوسف]

إلى أن قال تعالى حكاية لحديث امرأة العزيز مع النسوة اللاتى عيرنها بشغفها، وتعلقها بيوسف:

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) ﴾ [يوسف]

لقد عرف يوسف عليه الصلاة والسلام طريق الخلاص، ففزع إلى من بيده القلوب ومقاليد الأمور يصرفها كيف يشاء، وتبرأ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته حينما سمع إنذاره له بالسجن إن لم يكن عند رغبتها ويحقق لها ما تريد ، وسأل ربه أن يعصمه من الزلل، ويصرف عنه كيد أولئك النسوة.

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾[يوسف]

وما كان الله ليرد عبداً اتقاه ، وأخلص له الدعاء ، وكان السجن أحب إليه من الفحشاء .

قال تعالى ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) ﴾ [يوسف]

هـ - ومنها أنه لم يشغله ما أصيب به من تتابع البلاء عن ربه ودينه والدعوة إلى ما ورثه من التوحيد عن آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام، فانتهز حاجة من معه فى السجن إليه فى تأويل ما رأياه فى منامها، فبدأ بالحديث عن نفسه تعزيزاً لمركزه حتى يقبل عنه قوله ، ثم نصح لهما فى التوحيد وزينه، وحذرهما عن الشرك وقبحه ، وأقام على ذلك الحجة مع لطف وتذكير بالصحبة فى البلاء.

كل ذلك قبل تأويل الرؤيا ليكون أدعى إلى الإصغاء والقبول وأبعد عن الإعراض ، وقد أطال فى ذلك وجعله المقصود ، ثم ختم بتأويل الرءيا لهما فى آية قصيرة ، قال تعالى:

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧)

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) ﴾[يوسف]

فأنظر إلى سلامة فطرته وصحة عقيدته وتناسبه البلاء، وذكره لأسلافه وأمجاده الطاهرين المصلحين، ليتخذ منهم قدوة له فى التوحيد والدعوة إليه والحذر من الشرك وبيان فساده بالحجة والبرهان، وانظر إلى كوم خلقه مع صاحبيه حتى شهدا له بالمعرفة والفضل والإحسان، وإلى حسن سياسته معهم فى الدعوة إلى الله وإيثارها على ما سألاه عنه دون تضييع لما تعلقت به نفوسهما من تأويل الرؤيا، ولا مجابهة بالمكروه لمن دلت رؤياه على سوء عاقبته بل أبهم الأمر، فقال : أما أحدكما فيسقى ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه، وقد حقق الله ما قال فصار كا منهما إلى ما ذكر له فى تأويل رؤياه .

و - ومنها أن يوسف مع ثقته بربه وتوكله عليه أراد أن يأخذ بأسباب الخلاص مما أصابه من البلاء، وليس فى ذلك ما يعيبه أو يغض من توكله على الله، فإنه قد زج به فى السجن ظلماً وعدواناً بشهادة خصومه - ودفع

الظلم مشروع بل قد يكون واجباً – فقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك، فأنسى الشيطان ذلك الفتى أن يذكر يوسف لربه بالخير، فلبث فى السجن بضع سنين، ثم أختار الله طريقاً إلى الخلاص خيراً من الطريق التى رسمها لنفسه .

ز – ومنها أن الله سبحانه شاء أن تكون نجاته بما آتاه من العلم والحكمة وعلمه من تأويل الأحاديث، لا بشفاعة أحد ، ولحاجة الأمة راعيها ورعيته إليه دون حاجته إليهم، ليكون ذلك أكرم لنفسه وأعز لها ولئلا يكون لأحد عليه سوى الله منة، فهيأ له السبيل لذلك ، ورأى ملك مصر رؤيا هاله أمرها ، وعجز أشراف قومه عن تعبيرها

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) ﴾ [يوسف]

ولما أنتهى أمر الرؤيا إلى يوسف أولها أصدق تأويل، وبين أنها كشفت للأمة عن مستقبلها فى رخائها وشدتها أربع عشرة سنة.

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) ﴾[يوسف]

فأخذ ذلك التعبير من قلب الملك مأخذه ، ولم يسعه إلا أن يرسل بإحضار يوسف إليه ، فأبى حتى ينظر فى قضيته مع النسوة ، فإنه قد زج به فى السجن من أجلهن ،

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) ﴾[يوسف]

ففعل الملك ، وظهرت براءة يوسف،

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴾[يوسف]

ولما طلبه الملك بعد ذلك وحضر عنده ،

﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) ﴾

ثقة منه بنفسه، وعلماً منه بأنه ليس فى الأمة من يصلح لتدبير شئون الدولة الاقتصادية وتصريف أمورها على وجه يحفظ كيانها سواه، فطلب ذلك لمصلحة الأمة لا لحظ نفسه، فاستجاب له الملك لعلمه وصدقه وأمانته، وأتم الله ليوسف ما شاء من نعمته،

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾ [يوسف]

وبذلك يتبين أن الله محص يوسف ورعاه بتتابع البلاء والإنجاء، ابتلاه بكيد إخوته له ورميهم إياه فى الجب، ثم أنجاه، وابتلاه ببيع السيارة له، ثم هيأ له من أحسن مثواه، ابتلاء بتسليط امرأة العزيز عليه وبالنسوة اللاتى قطعن أيديهن.

ثم عصمه وحماه، وابتلاه بالسجن، ثم أخرجه منه بريئاً من التهمة عليما بربه وبشئون الأمة فى وقت اشتدت فيه حاجة البلاد إلى حفيظ عليم يدبر أمرها، ويقودها فى حياتها خير قيادة، فتولى أمرها واستسلم له أهلها.

وفى قصة يوسف سوى ما ذكر شئ يدل على أن الله سبحانه تعهد يوسف برعايته، وتولاه فى أطوار حياته ليختاره رسولاً يضطلع بأعباء الرسالة، وليجعل من سيرته الحميدة آيات بينات على صدقه فيما جاء به وأمانته فى البلاغ عن رب العالمين .

كانت رسالة محمد ﷺ بعد تتابع المعجزات على ثبوتها - واضحة ظاهرة لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ولكن المشركين تعنتوا معه حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق وأنفة واستكباراً أن تعنتوا رجلاً منهم ، فطلبوا منه أن يأتيهم بآية ، فهدى الله رسوله إلى أن جاءهم فيما أوحى إليه من القرآن بآيات بينات على نبوته وبعد ذلك نبأ موسى وفرعون .

فقد أوضح له فى قصصهما أولاً وجه دلالته على رسالته . وثانياً سنته الحكمية فى إعداد الأنبياء لتحمل أعباء الرسالة .

أما الأول :

فقد ذكر سبحانه فى أول سورة "القصص" بياناً عن نشأة موسى عليه الصلاة والسلام، وحاله قبل الرسالة، وأتبعه ببيان عن رسالته إلى أن أنجاه ومن آمن به، وأهلك أعداءه ليكون ذلك آية، بل آيات على نبوة محمد ﷺ وصدقه فيما أنزل الله عليه من الوحى، ودعا إليه أمته من الهدى ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى فى مطلع السورة

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) ﴾ [القصص]

وقوله تعالى عند إنتهاء ما أراد ذكره من القصة :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) ﴾ [القصص]

وذكر فى آخر السورة أنه ﷺ لم يكن لديه من الأسباب ما يبعث على الأمل فى الرسالة ، ولا من الدواعى ما يحمله على أن يحدث نفسه بها ويستشرف إليها فضلاً عن أن يدعيها ويسعى فى تحقيقها، فقد كان ﷺ

أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يخالط أهل الكتاب حتى يتعلم منهم قصص الأنبياء وتاريخ أممهم وما جرى بينهم من الأحداث، وليس فى أبائه من ملك حتى تتعلق نفسه بذلك ويطلب ملك آبائه، وبيان ذلك كما يلى :

١- قدم الله بين يدى هذه القصة جملة من الآيات، بين فيها سنته العادلة وحكمته البالغة فى القضاء على من علا فى الأرض وأفسد فيها ، ومنها على المستضعفين والتمكين لهم وإنالتهم من عدوهم فضلاً منه ورحمة، والله عليم حكيم ، قال تعالى:

﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) ﴾ [القصص]

وأتبع قصة قارون وما أصابه من الهلاك بقوله:

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) ﴾ [القصص]

هذه هى سنته سبحانه فى عباده، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ثم فصل ذلك فيما ذكره بعد من القصة .

٢- ولد موسى عليه الصلاة والسلام بمصر وكان ملكها - إذ ذاك - جباراً جائراً يقتل كل حديثى الولادة، فاضطرت أمه إلى إلقائه فى اليم خوفاً عليه من خطر القتل آل فرعون، وحين ذاك مر موسى بطور آخر من أطوار الخطر، وقضى الله لنبيه أن ينتهى بهم التفكير فى أمره إلى أن يتخذه فرعون ولداً، وأن ينشأ فى بيت ملك يتربى فيه على العزة وشدة البأس وقوة العزيمة، والأخذ بالحزم، ولا يصاب بما أصيب به قومه من

العذاب والذل والهوان، وبذلك يصلح لحمل أعباء الرسالة ومواجهة فرعون إلا من أمه، حتى أضطر فرعون ومن إليه أن يردوه إلى أمة، وهم لا يشعرون، وبهذا التدبير الحكيم واللطف الخفى انجز الله لأم موسى وعده ، فرجع إليها ولدها لتكفله ويتمتع بحنانها ، وينعم بعطفها وتقر به عينها ، ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق .

هذه حلقة أولى من حياة موسى، كلها عبر وعظات وآيات بينات على سنته تعالى فى إعداد أنبيائه قبل الرسالة فمنها :

أولاً : أن الله سبحانه جعل نجاته مما أصاب غيره من أبناء قومه فيما يراه الناس دماراً وإلقاء بالنفس إلى التهلكة.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) ﴾[القصص]

ثانياً : أن الله سبحانه كتب لموسى حياة سعيدة فى بيت من يخشى عليه منهم ، فعاش بين أظهرهم عيشة الملوك.

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) ﴾[القصص]

ثالثاً : أن الله حرم عليه تحريماً كونياً أن يرضع من إمرأة سوى أمه. فكان ذلك فيما يرى الناس بلاء أحاط به، وهو فى نفس الأمر كمال

اللطف من الله والرحمة بموسى ليرجعه إلى أمه، وهم لا يشعرون، فاجتمع له إلى السلامة والنجاة عطف الأمهات وعز الملوك ،

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾[القصص]

وهناك سلسلة أخرى من حياة موسى قبل الرسالة تضمنت الكثير مما حباه الله به من العلم والحكمة والمروءة والنجدة ونصر المظلوم والأخذ على يد الظالم والعطف على الضعيف وقوة الإيمان بالله والصدق فى الإلتجاء إليه والتوكل عليه والتواضع مع عزة النفس، وغير ذلك من مكارم الأخلاق التى يعد الله بها من يختاره للرسالة وقيادة الأمم، وألخص ذلك فيما يأتى :

أولاً : حفظ الله على موسى صفاء روحه وسلامة فطرته ، فمع أنه عاش فى أوساط ظلم وطغيان لم يتأثر بما يتأثر به من قضى أيامه الأولى من حياته فى بيئة استشرى فيها الفساد، وطبعت بطابع الجبروت والاستبداد، ولم يصب بما يصاب به أبناء الوجهاء ، ومن يتقلب فى النعمة ورغد العيش غالباً من الجهل والاستهتار أو الرخاوة والخلاعة والمجون، بل صانه الله عن كل ما يشينه، وآتاه العلم النافع والحكمة البالغة وسداد الرأى، كما حفظ عليه نعمته من قبل فى بدنه.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) ﴾ [القصص]

ثانياً : جبل الله نبيه موسى على الحزم والأخذ بالقوة فى نصرة المظلوم، يتجلى ذلك من الخصومة التى كانت بين إسرائيلى وفرعونى، وإنصافه للمظلوم، كما طبعه الله على الرفق بالضعيف والعطف عليه ومد يد المعونة إليه، يتبين ذلك فيما كان منه من النجدة حينما ورد ماء مدين، فوجد عليه أمة من الناس يسقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان[1] قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر[2] الرعاء، وأبونا شيخ كبير، فسقى لهما، فجمع له بين شدة البطش بالظالمين وكمال الرفق بالمستضعفين .

ثالثاً : كان من آثار عناية الله بموسى ورعايته له أن قوى فيه الوعى الدينى ، واستحكمت فيه الصلة بينه وبين ربه، فأحب ما يحبه الله من العدل والإنصاف، وكره ما يبغضه الله من الظلم والعدوان، لذلك فزع إلى ربه واعترف بظلمه لنفسه حينما قضى القبطى نحبه من وكزته، وأسرع فى الأوبة إليه من ذنبه، مغفرة، فأخذ على نفسه عهداً ألا يكون ظهيراً للمجرمين ، شكراً لله على نعمته ووفاءاً له بما غفر من ذنبه.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) ﴾[القصص]

---

(١) تسقيان الأغنام أو الماشية .

(٢) ينصرفون من السقى .

رابعاً : فاض قلبه إيماناً بالله ، وعمت ثقته به وتوكله عليه ، فقصد إليه وحده فى غربته وحيرته رجاء أن يهديه سواء السبيل.

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) ﴾ [القصص]

ولما اشتدت به الحاجة وأخذ منه الجوع مأخذه توجه إلى ربه وسأله من فضله ، وأبت عليه عزة نفسه أن يشكو حاجته لغيره ، أو يعرض لمن سقى لهما بطلب الزجر ،

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾[القصص]

وقد استجاب الله دعائه وهيأ له بيئة صالحة يحيا فيها حياة طيبة فقد عرض عليه شعيب أن يزوجه إحدى ابنتيه على أن يرعى له الغنم ثمانى حجج ، فإن أتم عشراً كان ذلك مكرمة منه ، فالتزم موسى بذلك، ولم يمنعه ما كان فيه أولاً من رغد العيش وحياة الملوك أن يكون أجيراً يأكل ويتزوج من كسب يده، وأشهد ربه على ذلك .

﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾[القصص]

وقد ثبت أنه أتم أبعد الأجلين، فدل على أنه طبع على حب الخير وفعل المعروف .

وحلقة ثالثة من حياة موسى علية الصلاة والسلام بعد الرسالة يتجلى

فيها ما حباه الله به ليكون أصلاً له يعتمد عليه فى إثبات رسالته وطريقاً يسلكه فى محاجة خصومه وإبلاغهم ما جاء به من الهدى والرشاد ، ويتبين ذلك فى مواضع من القصة . منها :

أولاً : طلب موسى من ربه أن يشد أزره بأخيه هارون، فإنه أفصح منه لساناً وأقوى بياناً، فآتاه سؤله، وأرسله معه زيادة فى المنة ومضاعفة للإحسان، وليكون عوناً له من الحجاج وتحمل أعباء الرسالة، وخافاً أن يبطش بهما فرعون وجنوده وأن يقتلوا موسى بالقبطى الذى سبق أن قتله.

فقال تعالى:

﴿ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) ﴾[طه]

وجعل لهما سلطاناً تقوم به الحجة، وتنخلع به قلوب الجبارين، وتمتلئ بالضعف والوهن من حجاج عقلى فى الربوبية بهر فرعون وقطع عليه طريق الجدال، ومن يد إذا أدخلها فى جيبه ثم أخرجها خرجت بيضاء للناظرين، ومن عصا إذا ألقاها صارت حية تسعى حقاً لا سحراً قد أبطل الله له كيد الساحرين، وبهذا وغيره مما أيده الله به ثبت فى ميدان الدعوة إلى الله ثبات واثق بربه مؤمن بما يدعو إليه من الهدى والنور، وتجلى فى حجاجه صولة الحق، وأحس من نفسه بالعزة والقوة، وبذلك أيضاً ذل جبروت فرعون، وتلاشى عنده تألهه وتعاليه ،

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ

رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣)﴾[الشعراء]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢)﴾[الإسراء]

ولم يعد فرعون يملك لموسى من الكيد إلا أن يرعد ويبرق ويموه ويخدع.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦)﴾[غافر]

ولم يكن ليأخذ على يديه أحد من الحاضرين، ولا هناك من الأسباب العادية ما يمنعه أن يبطش بموسى، فإن الدولة دولته والجنود جنوده ، لكنها عناية الله برسوله وما آتاه من آيات وسلطان قد بهر فرعون وقطع نياط قلبه،

ولم يملك أيضاً ملأ فرعون وزبانيته سوى أن يثيروا حفيظته ويغروه بموسى ومن آمن به.

﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) ﴾[الأعراف]

من هذا يتبين للعاقل أن موسى وهو وحيد غريب وقومه مستعبدون لم يقف هذا الموقف من فرعون وملأه والدولة دولتهم إلا وهو مؤيد من ربه ، صادق في دعوته أن هذا لهو الحق المبين .

ثانياً : جرت سنة الله العادلة أن يفتح بالحق بين رسله ومن كذب بهم من لأمم ، فينصر رسله ومن سار سيرتهم ويجعلهم خلفاء فى الأرض ، ويهلك من كذبهم وأنحرف عن طريقتهم، ليكون ذلك من آيات الله التى يفصل بها بين الصدق والكاذب والحق والباطل ەوالشريعة العادلة والقوانين الجائرة. قال تعالى :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) ﴾[القصص]

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١) ﴾[غافر]

وقال : ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) ﴾[الأعراف]

وهذا هو الذى انتهى به أمر موسى ومن آمن به وفرعون ومن استهواه ،

قال تعالى : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) ﴾ [القصص]

وقال: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) ﴾[الشعراء]

فأنظر كيف اتحدت وسيلة الإنجاء للأولياء والإهلاك للأعداء ،إنها آية الله الباهرة، وقدرته القاهرة، نجى موسى ومن آمن به بما جعله هلاكاً لفرعون وجنده، هذا إلى جانب انفلاق البحر اثنى عشر طريقاً وتماسك مائه وخروجه عن طبيعة السيلان بضربة عصا .

وفى قصص موسى سوى ذلك من الآيات ما يبهر العقول، ويأخذ بمجامع القلوب، ولا يدع مجالاً للريب ولا قول لقائل إلا من سفه نفسه، وسعى فى هلاكها، والله الهادى إلى سواء السبيل .

الفهرس